من فيض الخلود

في رحاب السيرة النبوية

فاضل الموسوي



جامعة المصطفى العالمية

من فيض الخلود

في رحاب السيرة النبوية

السيد فاضل الموسوي (النوري)

ديباجة الكتاب

بقلم سماحة المرجع الشهيد السعيد السيد محمد الصدر (قدس سره)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

بين يديك قارئي الكريم كتاب (من فيض الخلود) في سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، لا كالمألوف مما يكتب فيها من كتب التحليل والدراسة والنقد، بل هو من نوادر البحوث التي تحمل الكلمة العذبة، والعبارة الناعمة، والفكرة المعمقة.

إن فضيلة الأخ السيد فاضل الموسوي دام عزه صاحب هذا الكتاب، من فضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف، أعرفه بالعلم، والتقوى، والعمل الصالح، والإيمان، والجهاد، وإني وكل من يعرفه ويحبه نجد فيه أمل المستقبل للحوزة العلمية خاصة، وللمجتمع المسلم عامة، آملين أن يفيض الله عليه نعمه، وينفع به دينه، إنه ولي التوفيق.

ومن خصائصه الكبيرة قلمه العذب، وأسلوبه الفذ، كما هو واضح لمن يقرأ له، لا ينقصه حسن التعبير، ولا يعوزه عمق التحرير، ولا يذهب عليه جلاء التصوير، زاد الله عليه شرفه.

وقد حضر عندي عدداً من دراسات السطوح، وعرض علي قسطاً كبيراً من كتابه الذي كرسه للسيرة النبوية، فوجدته لطيفاً مباركاً،

فاقترحت عليه الاستمرار في كتابة التاريخ الإسلامي على هذا الغرار إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام على الأقل، لحاجة المجتمع إلى ذلك.

وقد طلب مني التقديم لكتابه، فوجدت من واجبي على أي حال حسن الامتثال، لعلي أكون عند حسن ظنه وظن المؤمنين، فكتبت ديباجة هذا الكتاب من أجله، ولأجل قضاء بعض حقه، أيده الله سبحانه بتأييده، وسدده، ونصره، ونفعه، ونفع به، آمين.

يوم ميلاد أمير المؤمنين ١٣٩٧ هجرية.

محمد الصدر

الاهداء

سيدي يا رسول الله.

يا شموخ المجد.

يا أروع معنى برأه ذو الجلال، فتضوّع به وضاء ضمير الوجود.

يا أعزّ آية رفعت على راحتيها حكمة الله ورحمته.

في ساحة عطفك ما جاش به صدري عن خطاك الزُهْر في سيرتك الوتر، تلك التي أنبتتها السماء في غرّة العلياء، فكانت مشرق الطهر والبهاء.

مقدمة الطبعة الثانية

عند سن العشرين، في يفاع القلم، عندما كانت خطاه الفتية تنطلق بالعشق مع لغة الضاد في روعة أدبها الوتر، وبلاغتها التي توحدت بالفخار، كانت حُميّا الشوق والعزم في ذلك اليراع الذي كان يحسب أنه على شيء من حسن الأداء في رحاب البيان الموحي، ومنطق الكلمات العِذاب ، أن يصوغ هياماً فرداً يكون فيه المعشوق آية اقتدار الإنسان الحبيب على أن يستحوذ بهواه على قلب من سواه استحواذ الفاتحين، حيث تروح مشاعر الغرام تنطق بلسان الوجد اللاذع، وتنطلق جذوة التهيام تفصح عن السعار بمذاب القلب المجذوب.

في سبحات المصطفى كانت سَوْرة الجوى تطوف بهذه الروح اللهوف على جنائن المنى، بانمياث ساحر عجيب في مصهر المعاني الرافعة والأشواق البارعة، حيث لا عين رأت من حسن الخصائص، ولا أذن سمعت من حديث السجايا، ولا خطر على قلب بشر من بدائع الرؤى في جلوة العلاء والبهاء.

في ذلك الربيع الحالم النشوان كانت انطلاقة التعبير عن الحب والولاء لرائد الرسالة، اقراراً كصفاء الفطرة بنبوته، واعجاباً كسحر الوَله بشخصه، واكباراً يفوق الوصف بسيرته التي تمحضت عبادة عارفة بلا مثيل، وسعياً واصباً بلا انقطاع، ومرارة متصلة بلا نضوب، وبناءً جاهداً بلا كلل، وقيادة فذة تفردت بالصدق والجهد والخلوص، واصراراً له في

(لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي...) أصدق تعبير عن اقتداره وإبائه، ووفاءً لله والأمة لم يحلم الوفاء قبله أن يجد له به مصداقاً في قلبٍ وفي سلوك، وزهداً مستوعباً كأن صاحبه من عُمّار الملأ الأعلى لا من سكان الدنيا، ونكراناً للأنا والذات أعيى الخيال لأنه جانف الهوى واللذات، وتضحية شروداً تجسد بها مبدعها قرباناً محرّراً لهموم البشرية وآلامها، وحكمة فاردة تجلى فيها العمق والسداد لأن قائلها يفرغ عن لسان العقل المطلق، وشموخاً باهراً تضوّعت أرجاؤه وضاءت بالمجد والجلال.

في تلك الرحاب السنية البهية كانت رحلة ذلك الفؤاد الهيمان، وعن اعجازها وعزها كان حديث ذلك القلم الشائق الولهان، يظن وهو يخوض غمرة العشق أنه مفردة تليق في قاموس العاشقين، ويحسب وهو يجهد أن يسطر الهيام كلمات وعبارات أنه من سُرات الفن المبدعين، ولكنه حين يجمح به الشعور الثائر بالوداد المكين الغامر، والاعجاب المتين الباهر، ويستهيله الاعجاز في سيد المرسلين وخاتم النبيين، يكاد ينفض يده من حسبانه، ليقعد مهيض الجناح أمام حقيقة كبرى لم يفهمها حق فهمها وإن شغفته حبا، وكرامة أسمى لم ينصفها بمعشار ما لها، وان خدعته غاية جهده في لجة وجده أنه قد أحسن الأداء فأظهر المكنون العصي بالكلمات، وجسّد الشعور القهّار بالعبارات.

هكذا كانت هي الحقيقة في هذه الصفحات في كتاب (من فيض الخلود) التي تغمدها استاذي وسيدي وأسوتي، شهيد الحق، الصدر الثاني رضوان الله عليه ـ برفقه ومداراته وكياسته، فاستحسنها، وحثّ على مواصلتها، وكتب لها من عطفه ونبله وتواضعه سطوراً لم تزل عندي منارة تضئ، وعزيمة تدفع، ودلالة تهدي، وقداسة تهز ضميري، وتنحو بوجداني إلى الأفق، مشيرة باصبع الاعظام إلى شموخ ذلك الرمز الكبير الذي خفض جناحه لي وهو العملاق في عليائه، واستصلح همتي ورغبتي بعافية سموه وحكمته، فانقلبتُ مفلحاً بالرضا والحبور، منجحاً بالتأييد والتسديد.

إنها تجربة القلم اليافع في أولى خطاه، وحكاية العشق الرافع في أبهى ذراه، وسماحة الاستاذ البارع في نبله ونداه.

مولد النور

ذلكم هو في عالم الجلال الخاشع والبهاء الضارع، في جوار الله وسبحاته ـ معنى عظيم يقود ركب المعاني العظيمة التي كانت قبل كل شيء لأنها الأسمى، يعبد الله ويمجده، ويبصر الزمان يطوى بما يجيش به من أحداثه، متربصاً حينه الذي يجعله الله فيه حقيقة ماثلة في واقع البشر، شمساً مشرقة في غمرات الليل الايهم، وفيضاً محيياً في فيافي الجدب والخواء.

ذلك هو فلذة من كبد الكبرياء والتسامي، وشنجة من كيان المجد والفخار، حبا الله بهما معمورته من لطف باهر وبر غامر، فحلّت فيها كما تحل هذه النظائر من الخلق، ومشت على ركب الناموس، فاستقرت ماءً مهيناً في صلب، ثم نطفة أمشاجاً في رحم، وأفصحت عظمة بالغة عن نفسها في هيئة انسان سوي، واستبان روح عُلْوي باهاب مخلوق زكي، وتجسد كمال أخاذ ساحر، في وليد بهي زاهر.

ذلكم هو في صفحة التقدير الحكيم كلمة سامية، وفي ذروة الاصطفاء الكريم نفس عالية، وفي علياء الحق وجه ساطع، وفي سجل الفضيلة عنوان لامع.

إنه محمد، مجمع المحامد والمفاخر، وربيع الفضائل والمآثر، شاهد الحكمة، وشهيد الأمة، سيد النبيين، وخاتم المرسلين.

ضحكت أزاهير الشباب عباقة في ميعة العمر الندي الفينان لذلك الفتى الطاهر النجيب عبد الله.

والتمعت صفحة رجولته في عين أبيه، شيخ قريش، وسيدها الذي غمرته حنيفية جده ابراهيم بسحرها العجيب خصالاً زاهرة، وسجايا باهرة، وخلقاً عظيماً، وطبعاً كريماً، فتألقت به في عليائها شموس الفضيلة والمعالي، تزينه ابراد المكارم، وتحفه هالة التحميد والتمجيد.

وراح عبد المطلب يجوب بباله اللمّاح افضية المثل والمحاسن التي ينشدها فيمن يختارها من بين هذه البيوتات الشامخة، زوجاً رضية لاثيره الحبيب عبد الله، لتضحك منها في دنياه مباهج السرور، وتنتشي بها حناياه بالبشر الطافح، وينطلق معها في مسار الحياة على الدرب الممهدة بالهناء الغامر.

خيال شيخ البطحاء بات يحوم في سماء بني زهرة، ويحط في فناء وهب أبي تلك الفتاة الطاهرة التي ملأت أسماع الناس بالكلمات الحسان عن تلك السيرة الشرود، وذلك الجيب النقي، وتلك الروح الزكية الصافية التي تجسدت صفحة ناصعة من المحامد، لم تشبها مثلبة قط تحط من شموخها في ترفعها عن الرذائل، أو تشين علو قدرها في نزاهتها عن الأدناس.

لمح الشيخ فاستبشر، وعزم على أن يسير على الطريق إليها، عسى أن تحتضن روضة القِران تسجيع بلبله وهديل الحمامة المرتقبة، في

حياة ناعمة ندية، وإنه ليرى أن عمها وكافلها لن يرده عن ما تمناه، وكيف ذاك وعبد المطلب هو صانع مجد قريش، وباني صرحها، وسادن بيتها؟

ومضى عبد المطلب في أمره فما اعتوره فيه مانع، ولا وقفت في وجهه دونه العقابيل، وتمّ له ما أراد، وراح عبد الله ينعم في ظلال آمنة بالأنس والهناء.

وشاءت السماء منذ الأزل أن يحل في بطن هذه الفتاة طاهرة الذيل أعظم مخلوق عرفته الحياة، وها هو جنين تدب فيه ارادة الله رويداً رويداً. وما اضطم عليه الرحم ليتمخض عند جديداً لم يكن شيئاً مذكورا، بل كان شيئاً وأيما شيئ، كان كلمة بهية تزينت بها السموات. وإنه ليقول

(كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد).

ثم عاد يمشي في ركب الناموس، فينحدر في الاصلاب الطاهرة حتى يحل في غيهب البطن نطفة في رحم، حملته أمه أنساً وطيباً ولطفاً، لم يجشمها الذي تلقاه ذوات الاحمال، فما ارقّه في بطنها لكأنه النسيم، وما أطيبه لكأنه العبير، و ان آمنة الخير لتحدث عن حملها به فتقول:

(لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته).

عبد الله الذي انطوت في صلبه أكرم كلمة، وزوج صاحبة القرار المكين الذي حلت فيه، يرى أنه يكاد أن يملق، ويوشك أن تتفتح اكمام

الإرادة عن وليده وهو معدم، فأولى له ثم أولى أن يسلك السبيل. وإن كانت مستعصية إلى الغنى وحسن الحال، فلا يفتح ابنه عينيه إلاّ في بيت رافل بالنعمى فقام يسعى في تجارة إلى الشام أمّل أن يعود منها وقد فاز بالسهم الوافر والنعمة الغامرة، وليحتمل من أجل ذلك كل الاتعاب، فعما قريب يجيئ وليده المأمول، فتقرّ به العين، ويبتهج له الخاطر.

ومضى الرجل الطموح في تجارته، ونال منها ما تمنى، فأزهرت أرجاؤه ببهجته، ويشرع في العودة وهو يود أن لو كان طيراً فيسرع الأوبة إلى زوجه الزكية ليريها نضرة حاله ووفرة ماله، مرتقباً واياها مطلع السراء من أفقها الوضاء.

ولم يستكمل المحبور رحلة الاياب، فقد كان القدر يرصد له على الطريق عادية الردى، حتى إذا قاربه حلّ به فأسقمه، والجأه إلى بني النجار في يثرب، ليخترمه هناك، حيث ذوت مع الرجل الذي سطت به يد المنون فابسلته كل ضحكات الآمال التي حفه بها قلب آمنة الكبير، وغدا الجنين الذي ضمنت عليه يتيماً، وانكسرت أمه التي حسبت أن سيعود بعلها الكريم بالخير، ويؤوب من رحلته بالنعمة، فيتربص قليلاً بحامل وديعته حتى يضعها بين يديه، لتغمر قلبه الذي أجهده السفر، واضنته الرمضاء بالبشر والدعة والحبور، فيغفو في حضن الرخاء قريراً آمنا.

مات عبد الله فهبّت في نفس أبيه وزوجه أعاصير الشجن، وتغشتهما أسداف الهموم والآلام، فأبوه لم يزل يرعى خطواته، ويحصي أيامه، مؤملاً أن يراه ربّ بيت رفيع العماد، ذائع السداد، ينهج به الحنيفية على خطا أبيه الشيخ الكريم. وهذه زوجه الأيكة العاطرة آلمها أن لا تراه في مديد عمره وقد غمرته بلذة التطواف في أكنافها، وأذاقته نشوة النعيم في أفيائها الحالمة، كلاهما تماثلا في لوعة الفقدان، وائتلفا في سطوة الأحزان.

وتمضي بالجنين أيام حمله إلى ساعة ميلاده، وتروح عين الخلود تحدق في تلك الدار من ديار أم القرى حيث وليد آمنة يتنفس عن نسيم الحياة، فتمتلئ رئة الأم بالعبق، وناظرتاها بالسنا، وها هو يطوي لها الأبعاد، ويجمع لها الدنيا في قبضة كف. وتحدثنا من كانت معها ساعة الميلاد عن عجب من الأمر حيرها، وعضها بناب الدهشة:

(ما من شيء أنظره في البيت إلاّ نور، وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لاقول ـ لتقعن عليّ)

لقد أطرب أمه مقدمه، وغمرها بالمسرة أمره، حتى كاد أن ينسيها لوعة الأمس بمصابها بعبدالله الذي افتقدت فيه فتى الأحلام، ولكن سرعان ما الوت تعصف في أنحائها رعدة الأسى وهزة الحزن، وأحست بالترمل يعود جديداً، إذ أنجبت يتيماً سوف لن ترى له أباً يأنس به أنس

أمه، ويشاطرها حبورها، بعد أن يشنف أذنيها بأنغام تهانيه لها بالوليد الحبيب.

لم يعمّر معها من رأت في ظلاله أطياف الهناء، وتوسمت فيه معيناً للخير والرواء، إلاّ كفواق ناقة ثم فارقها، وأمسى ابنها هذا يتيماً، وقد غربت عنه تلك النفس التي عجت بها الآمال عنده، وتمنت أن تراه، وتذوق أهنأ العيش في مرآه. وحاولت آمنة أن تدفن الأسى في أعماقها، وأن تكتم أنفاس الشجى، ففعلت وما كادت. وارسلت إلى جده الماجد فهبّ كأنما صيح به عن نوم، وانتفض مسرعاً نحوه علّه يرى بين عينيه صورة العظيم الذي تعالت باسمه الصيحات على مرّ السنين، وصورة ابنه الراحل ، وما كادت قدماه تحملانه، وما كان يظن أن سيصله ويتملى لرؤيته جبينه، ولكنه عجلان ما وصل، فاحتمل الصغير بين يديه، وأوسعه شماً وتقبيلاً، ثم غدا به إلى البيت العتيق يسأل من أعطاه أن لا يأخذه كما أخذ أباه بالأمس، وان لاّ يفجع به أمه وجده، وأن يصونه ويرعاه، فلعل به أن ينطفئ الغليل، ويبل الصدى، وينقع جده الضامئ، وترتوي أمه الضاحية. وطاف به حول البيت ذاهلاً عن دنياه في غمرات فرحته، وإن صوته ليعلو بالدعاء تارة، وبالنشيد أخرى، حتى إذا اطمأنت نفسه عاد به إلى أمه التي أسلمته إلى ثويبة ترضعه، متربصة به مجيئ المرضعات، لتعطيه أمه احداهن، فتخرج به إلى دنيا الطلاقة والصفاء،

ليلدا لهذا الصغير لساناً نقياً، وجسماً صحيحاً، وقلباً نابهاً، ولباً راجحا. ولم ينس الشيخ أن يملأ سمع حاضنتة أم أيمن بوصيته به خيرا.

(يا بركة لا تغفلي عن ابني هذا، إن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى هذا نبي هذه الأمة).

فلما مضت ايامه السبعة عق عنه، ودعا قريشاً لوليمته، حتى إذا احتشد سامرهم، وندت أفواههم عن كلمات التبريك، وعبائر التهنئة والدعاء بالسلامة، وهموا أن ينفضوا، انطلق صوت إلى سمع الشيخ:

ـ (أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟).

ـ (سميته محمداً).

ـ(فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟).

ـ(أردت أن يحمده الله في السماء، وخلقه في الأرض).

في أحضان المرضعة

الصفحة الداجية أغبش ليلها، وراحت يد النور الدافق من عين الفجر تمحق طاغوت الديجور، ومضت بسمته الصبوح تفضح سر الظلمة، وتكشف عن وجه الأرض أثقالها المرة وكلكلها العصيب، وهبت الحياة بعد ما كانت أسيرة السبات في كنف الليل الداجي، واستيقظ أهل ذلك الحي ليبدأوا يوماً جديداً من الألم والمرارة لنضرة ذوت، وخضرت أجدبت، فقد سرت يد المحل على تلك الربوع، فعصفت بها، فعادت بعد إزهارها قاحلة مجدبة.

نهضت حليمة ومن قبلها زوجها على صوت الصباح يجلجل، هبّوا أيها النوّام إلى يوم وليد رفعته لكم على راحتي، وغمرته لكم بالنور ـ وعلى صراخ الصغير الغرثان الذي حرمه الجفاف لبان الثدي والضرع فبات يسعف نفسه المحروبة بالعويل.

وسرعان ما شدّا رحالهما إلى مكة، فمن أمس عزما على الرحيل إليها عسى أن يحظيا بمن يرتضع عندهما، ليكون أجر الرضاعة عوناً لهما على نكر المعيشة وبؤس الحياة. الأتان عجفاء ضاوية، ولا تنقل خطاها بحملها إلاّ بلأي شديد، والطفل عليل هزيل، ارمضه الجوع، وانحله سوطه الضاري، وإن وعثاء السفر وطول المسير قد ارهقا هذا الركب الصغير المكروب.

ولم يكد بصر حليمة يقع على معالم المدينة حتى سرى في عروقها برد الراحة ونشوة الاطمئنان، ولم تعتم بعد دخولها مكة تطوف على بيوت الموسرين والأغنياء، فإذا هي على حالين، أما بيوت ليس فيها رضيع، أو بيوت عابت عليها عودها الذابل، ووجهها الشاحب، وعويل طفلها بين يديها، وأدركت أن لو كان عندها لبن لسد جوعة رضيعها، وأطفأ لوعته. وكانت نهاية المطاف أرملة ابن عبد المطلب، ولقد أحجمت حليمة عن أن تطرق بابها، فأنى لها أن تجود على مرضعة ابنها بالنيل والعطاء؟، ولكنها وقد أبصرت صويحباتها المرضعات تهيأن

للأياب، وكل قد أحضنت على رضيع، أقدمت بعد أحجام وقالت لزوجها:

ـ (**والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه**).

وردّ عليها هو بلهجة الآيس المستسلم، أو المخاتل نفسه الاسيانة بخدعة الرجاء:

ـ(لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة).

ودخلت على أمه التي أطرقت تحدق في وجهه، في قلبها لوعة مؤرقة على أبيه، وعلى شفتيها بسمة أمل فيه، وفي عينيها دمعة أثارها الحزن والسرور، فهي تعرف ان ابنها هذا غير الابناء، فلم تزل تسمع عن الكهنة والرهبان والعارفين حديثهم غير المباشر عنه وعن شأنه، وهي ما رأته في دنياها حملاً في بطنها، ووليداً بين يديها، إلاّ على عجب من أمره، أفصح لها عن صدق ما قد قيل فيه، فكان من هذا سرورها، وهي قبل هذا كانت عشير صاحب ماجد، وزوج رجل كريم، وقد حفظت له ما استودعها، حتى إذا دنا موعد أن ترد الأمانة كان إلفها قد طواه الردى واحتضنه رمسه، فكان من هذا حزنها، وكان من هذين تلك الدمعة الامشاج الضارمة.

وقفت حليمة ازاء هذه المرأة التي اصطرع فيها خضم المشاعر، وقد لفها الصمت، وغرقت في السكون تنتظر عقبى الصراع، لكنها اشفقت عليها فقطعت عليها مسيرها في هذا الجو اللاهب، وعرضت عليها أن

ترضع لها ابنها، فرمقتها بطرف يلوح منه الاشفاق عليها، إذ تفرست أنها لم تأتها ولتطلب إليها أن ترضع ولدها إلاّ بعد اليأس من العثور على سواه، ولقد صدقت فراستها، فإن حليمة ما جاءتها إلاّ بعد أن نبذها غيرها. وأجابتها بالرضا، ولكنها أحبت أن تريها من شأن من سترضعه ما يرفعه من الوهدة التي حلّها في نفسها، فتأخذه وهي تشعر بالاعتزاز بأخذه، والفخر بارضاعه، فلا تحني رأسها بين من سواها وقد أخذن أبناء الاغنياء وأهل العطاء، لقدرفعته إليها لتناولها إياه وقالت:

ـ(يا حليمة اعلمي أنك قد أخذت مولوداً له شأن، والله لحملته فما كنت أجد ما تجد النساء من الحمل، ولقد أتيت فقيل لي أنك ستلدين غلاماً فسميه محمداً، وهو سيد العالمين).

وكادت أن تخشع حليمة، لولا أن عجزها عن أن تفهم هذا الصغير الذي بين يديها قص جناحيها، ومنعها من أن تطير في سماء الخشوع، فأخذته وفي نفسها من كلام أمه بعض اجلال له وهيبة منه، ثم شدت رحال العودة مع ركب المرضعات، ومضت تخبُّ السير على غير الحال التي جاءت بها، حيث لاحت البواكير لشأن رضيعها، وبدت طلائعه، فصدرها الذي كان لا يبضّ بقطرة لبن لابنها أضحى سكوباً معطاءً حتى أنه ليشبع ولديها ويبقى بطيناً مليئاً، واتانها المكدودة الضاوية أمست تفيض بالعافية، وتتدفق بالنشاط، وهي الأخرى كأنما انفجرت في ضرعها للبن ينابيع وعيون فأمسى سحاً متداركاً.

واهتز لهذا التبدل العجيب والنعمة الغامرة قلب الزوج فصاح بزوجه بلهجة المتفائل الواثق مما يقوله:

(تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة).

وشب ضرام الحيرة والذهول في قلوب النسوة معها في الركب، وقد شهدنها تقدم مكة وتطوف على بيوتها بحال محزنة مبكية، وها هي وليس أحد أحسن منها حالاً، حتى اتانها هذه قد غدت ليس يلحقها شيء من حمرهن، فصحن بها:

(يا ابنة ابي ذؤيب اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ والله ان لها لشأناً).

حتى إذا وردت حيها المقفر شعرت وكأن الينع نفخ فيه من روحه، وسرت في حناياه بهجته، وتفجرت عين البركة عليه كرامة للصبي العظيم، فأضحى سهلاً مخصباً ترتع فيه سوائم حليمة، تغدو إليه جائعة ساغبة، وتروح عند الأصيل شبعى مليئة الضروع، ومن حولها سوائم الآخرين لا تؤوب إلاّ كما خرجت بالخواء والضنى، فحدا ذلك بأهلها أن صاحوا برعاتهم:

(ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب).

وتمضي شهور اليتيم في حضن حليمة كأنها أعوام، فهو يشب شباب الغلمان، ولم تمض سنتاه، ويحين فصاله حتى كان غلاماً شديداً ناهضاً، وقد توزعه في هذه المدة قلبان، قلب ضمه أول أيامه، وحنا عليه،

وتغمده برفقه وعطفه، ومضى يسقيه سلسال حنانه ولطفه، ولم يعتم يختلج فيه حتى حين فصاله ألم مر وغم مبرح، إذ يرى أن هذا الذي يغذوه بره ورأفته، ويذوب فيه، ويهيم به، وينعم في ظلاله بالخير، ليس منه في شيء وأنه وديعة عنده سوف يأتي يوم وهي ليست عنده ولا بين يديه، وقلب ثمة في مكة لم يفتأ يشع على الوليد بلهفته، واشفاقه، وحنينه، وهيامه، ويسري منه الوجد به والتحنان إليه عبر المسافات المترامية حتى يغمراه بدفئهما وعذوبتهما، وهو يرتقب يوم يعود إليه ليراه وليس أحد أقرب إليه منه. وما اضراها من ساعات أمضتها حليمة والسهود حليفها، فقد ذهب النوم عن عينيها، ونأى عنهما طائر الكرى، فكأنما كحّلتا بالملح، وجفت مضجعها، وراحت تسرح في بيداء الوحشة والضجر، فما هي إلاّ هذه الليلة، وفي الغد سوف تنطلق بالوديعة تردها إلى ذويها، وسوف لن تراها، وترى بها عذوبة البشر وبهجة الخير، ولن تجد بين يديها محمداً ملاذها من الضيق والضنك، ومعاذها من الأسى والتهمام. ويدلف الصباح على حليمة من كوة البيت، فأغمضت عينيها لتعمّس على قلبها الخبر اليقين بمطلع النهار، فهو لا يريد أن يراه لأنه ليس كغيره، وقد كان محمد في أحضانه لاتنازعه عليه يد الموعد، وانتهاء أجل الرضاعة، وأما هو فنهار مكفهر مسعور، سوف يفقد فيه مكمن السراء، ومستثار النعمة، فهو ميعاد الأياب. واقرت حليمة بالحقيقة، وعلى رغمها قامت تشد رحالها لتعود بالصبي إلى أمه وفي

عونها زوجها، وهو الآخر على رغمه قام يهيئ أسباب السفر، فكيف يهون عليه وهو من كان يقبع في كهوف البؤس، ويتيه في قفار الحرمان، وقد أضحى بمحمد يدخل دنيا الخير من بابها الكبير، وينظر الحياة بعين المطمئن القرير ـ أن تطوّح الدار بالفاتح الذي سلك به سبيل الظفر؟.

وبعد قليل كان الزوجان والصبي الميمون على الطريق إلى مكة التي خفق فيها قلب آمنة فكأنما أحس بمقدم من صبّ فيه، وهام به هيام الولّه، وطاف حوله كل أيامه فكأنما هو كعبته. وكذّبت آمنة همس الفؤاد وحديث النفس، فغاية الشوق قد سدت عليها منافذ التصديق، وما هو إلاّ نزاع بينها وبين ما في طيتها حتى قطعت حليمة وهي تدخل عليها احتدام ذلك الصراع، ووضعت محمداً في حضنها، ونفسها تقول لها أن سيعود لك الغلام، وستقضين معه زماناً حالماً كذاك الذي ولى، وتتعرفين على الزيادة في الخير أياماً آخر كتلك التي مضت، وصدقتها نفسها، فمكة وقد عمّها الوباء أمست تضرم بالاشفاق حشا آمنة، وتوري في قلبها جحيم الخوف على طفلها الحبيب، فلما بادرتها حليمة بذكر شوق الرجوع به إلى البادية، وقالت لها:

(لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة).

وظلت معها حيناً تنازعها على هذا الأمر أجابتها على مضض إلى ما أرادت، وعاد محمد إلى الصحراء بعد ما عاش أياماً مع أمه قضاها معها في عناق ساحر، سقته فيها بعض عطف الأمومة وحنانها، وسقاها فيها

بعض فيض النعيم. واشتعلت نفسها بهمومها، ودوى فيها عزيف الغم، وعصف الشجن، فمحور البشر، وقطب الارتياح غاب عنها من جديد، وستظل حيناً آخر وهي ترعى النجوم، وتصادح حمام الدوح بانشاد الشوق والهيام، وتباغمها بالحان الصبابة والحنين.

أخذته حليمة وعادت ببغيتها، فهذا محمد باب الرحمة التي شملتها يؤوب معها، وهي لا تكاد تصدق أنه يصحبها في ركب العودة إلى ديارها التي عمرها وجوده فيها، وعمها منه الينع والنضرة والرواء، وهي الآن أشد ما تكون حرصاً عليه، وضنّاً به على الآلام، فراحت تفرش طريقه باللطف، فما يكاد يخرج إلاّ وتصحبه ابنتها الشيماء لتجنبه كل سوء، وترده عنه إن همّ أن يقع عليه، وما يرغب في شيء الا ويجده مستقراً عنده، ولا ينام عندها إلاّ على وثير، ولا يفتح عينيه إلاّ على الابتسام، ولم تكن لتأذن أن يخرج مع أخوته في رعيهم مخافة أن يؤذوه، أو يصل إليهم منهم مكروه، فهي وقد فتحت به أبواب الخير عليها أرادت أن تريه أثره، وأن تجزيه بالاحسان كما أحسن إليها بشرفه وجلال قدره.

حين أخذته أخته إلى حلقة من الصبيان ليلعب معهم وجدت منه شيئاً عجباً، فهو ما همّ أن يلعب كما يلعبون، ولا شاركهم في كثير أو قليل من فعلهم، وهو بينهم وكأنه ليس فيهم، وقد تجلبب الهدوء البالغ، والصمت المطبق، والعزوف الكامل عن اللهو، وعن الخروج من طور

الكمال الذي سكب فيضه في مشاعره، فتنحّت به عنهم إذ لم تره داخلاً فيما هم فيه داخلون، وأخذته بعيداً بين الشعاب والوديان كي تروّح عنه، وتُدخل عليه الدعة والحبور، وكانت أمه قد توجست من طول غيابه عنها الشر، وخفق قلبها بالخوف عليه، فهبّت مسرعة تبحث عنه، وتهيب بمن صادفها أن يعضدها فيمضي يجوب الاماكن في البحث عسى أن يلفيه ليريح قلبها الضارم ونفسها المكروبة، لقد نسيت دنياها، ونسيت حتى ابنتها التي فقدتها مع محمد، وقد آدهافي البحث خروجه في هذه الهاجرة المضنية والحر اللاذع، وفيما هي في سعيها للقياه عثرت عليه مع أخته، فأوسعتها عتاباً وانتقاصاً على فعلتها به من اخراجه إلى هذا المكان وسوط الشمس يلهب الأرض ومن عليها، ولكن ابنتها ردت عليها بثقة بالغة وحزم أكيد:

ـ(يا أمه ما وجد أخي حرا، رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت ،حتى انتهى إلى هذا الموضع.)

لقد كان هذا أول يوم حسبت فيه حليمة أنها قد قصّرت في حق محمد، وتهاونت في شأن رعايته، لولا أن جاءها يوم آخر وجدت فيه نفسها وقد أطبقت بالعناية عليه، فتكاد يد السوء أن تسطو به، فبينا هي وإياه في شأن لها خارج البيت إذ عرض لها ثلة من الرهبان، فهموا به، وولوا يجرونه عنها، وينازعونها عليه، زاعمين أن له شأناً، وأنهم لا بدّ أن يأخذوه إلى ملكهم فيحكم فيه بأمره، وما إن وقعت عينها عليهم يرومون

أخذه من بين يديها حتى انفجرت بالبكاء، ومن قبلها انفجرت في باطنها براكين الرعب والهلع، فالموقف فادح الخطب، والمشهد صعب عسير، والقت بنفسها عليه تحول بينهم وبينه، ثم مضت تجاذبهم إياه، يعاونها صراخها واستنصارها حتى أفلتت منهم، وعادت واجفة القلب، مهزوزة الخاطر، كاسفة الشعور، وما أن وصلت البيت حتى شكت بثها بعلها مفضية إليه الأمر، مستعدية لديه على الرهبان، وكلها خوف على محمد من طارقة أخرى مثل هذه فتذهب به، وقد خفق في ذهنها ما قالته لها أمه حين وضعته بين يديها من أن له شأناً، وقد جاء الرهبان يصدقون قولها، وخشيت أن يصروا على أخذه، وهم إن تركوه لديها اليوم لضعف حيلتهم، فسيأتون غداً بالعون والمدد ويأخذونه منها وهي راغمة، أو يجيئ غيرهم ممن لهم علم بشأنه فيخلون منه ساحتها، وتبقى بعده أسيرة الكربات والحسرات، و إن زوجها هو الآخر امتلأت نفسه بالغم وخشية ما قد تأتي به الأيام من مثل ما جرى، فألحّ عليها بالرجوع به إلى أمه، فهو عندها أقر لعينيهما من أن يكون عندها وعوادي الشر تكاد تحيق به، وإن كان الله قد أسبغ به عليهما نعمته، وأتمّ عليهما فضله.

وباتت حليمة ليلتها مرهقة الشعور، وارية الاحساس، غير مصدقة أن لهذا الليل صبحاً يشرق بوجهه على الأرض فتنطلق تحت لوائه بمحمد إلى أمه، وما عاودها النوم إلاّ لماماً، حتى نشر الفجر رداءه، وفاض بالنور، فقامت إلى أتانها فامتطتها، واحتضنت الصبي الأثير، وغذّت

السير، وفي قلبها من الأمس حيث أوشكت أن تخلو منه ـ دويّ ووجيب. وبعد لأي من السير كانت قد دخلت مكة، وألقت لديها أثقال همومها، وهدأت نفسها بعد ما كانت في فورة، وخمد احتدام المخاوف في أعماقها، وما هي الا خطوات نقلتها حليمة مرتاحة النفس مطمئنة القلب شطر ذلك البيت الذي يضمّ بين اركانه أم محمد ـ حتى كانت على بابه، وإن آمنة وقد دخل بيتها ريح ولدها لترنو بعينيها يميناً وشمالاً يدفعها الشوق الجامح إلى ذلك، وقد أملى عليها أن سترى ولدها في إحدى جهاته، ولو لم يكن شوقها الدافق يدعوها إلى ذلك فإن له ما يدعوها إليه غيره، وهو شأن ولدها وقدس شخصه، فليس نكراً من أمره عند روحها المعجبة أن يدخل عليها بيتها غير مأتي به ومن حيث لا تدري.

وظل سعير اللهفة يشب في أحشائها حتى كانت حليمة النجيبة هي الهاطل الذي انصب ليخمده، واليد التي أزهقت بقبضتها أنفاس ذلك الجموح، فها هي تدلف على الأم اللهوف بخطا متعثرة، وكلماتها تتكسر على شفتيها، وما تدري ما الذي تبديه وما تقوله، وقد لفها خشوع الحال وجلالها بالهيبة والحصر، فعيّت وأفحمت، لولا أن محمداً انطلق من بين يديها وألقى بنفسه في حجر أمه ليتكلم هو على ثغر المشهد، فتستريح حليمة من عناء البحث عن الكلام وقد أهزمته في ساحة بيانها جحافل الهيبة لموقف اللقاء بين أمّ كأنها ثاكلة وبين ولدها الذي وضعت قلبها

بين يديه، وقالت له أفعل به ما تشاء، فإنه قربان لدعتك، وفداءٌ لهنائك، ويؤنسني أن تجعله جسراً إلى راحتك، فأنت محمد الحلم الذي ترنم به المنشدون على كر العصور، واليد التي امتدت لتسد باب الأسى إلى حياتي.

واستقرت بعد حين حليمة، واطمأنت نفسها، فمضت تحدث آمنة بالذي جرى عندها لولدها، وامتدّ الحديث على بساط السرور، ومحمد إلى جنبهما قد أغرق امعاناً في أجواء مكة وأنحائها، وكأنه قد عرفها من قبل، واضطم صدره على ذكريات جمة لها، فهو في دنياها يلبس المشاهد الحاضرة أثوابها من ذكريات الأمس. لقد أحس بثقل هذه المدينة، وأن لها في قلبه مكاناً سامياً ومحلاً عظيماً، وشعر بروحه وهي ترفرف لا في أحشائه بل في آفاقها، وعلى ذرى جبالها، وفوق هضابها، وعلى سفوحها، وفي شعابها ووديانها.

حتى لقد اتخذ انشغال أمه ومرضعته عنه في حديثهما ستراً دونهما، وانطلق هائماً على وجهه فيها. فانتفض جده وأعوانه، وجدّوا بحثاً عنه حتى وجدوه. ولم ينه حديث الأم والمرضعة إلاّ الليل قد أوشك أن يخلع رداءه الأخير، ويترك الحصون لجيش النور الزاحف نحوها، فأوصِد باب الكلام، واستسلمت المتسامرتان لسلطان النوم، هذه في قرب ولدها منها، فهو بين يديها تضمه وتشمه في نوم رغيد هانئ، وهذه في بعده عنها في نوم قلق مهتاج. وهيمن النهار على الأرض، وحان

لحليمة أن ترجع إلى ديارها، فشدت رحلها، ومحمد بين يدي أمه يرنو إليها، وفي عينيه دمعة ضارمة، وفي قلبه حسرة متجمرة على التي ألفها والفته، ورفعته في قلبها ورفعها، ولم ير منها إلاّ برها وانعامها، تريد الساعة أن تنأى عنه، فأطرق والاسى يغمر أنحاءه، والبرحاء تضرم أحشاءه، ولم يرفع رأسه إلاّ ليحدق في وجهها وقد أمسكت به ورفعته إليها، وضمته إلى صدرها، وقبلته بين عينيه، وأسبلت عليه ماء شوؤنها فهي تظن أنها لا تراه بعد اليوم، ثم آبت إلى حيها، وفؤادها فارغ محزون، والدنيا بعينها موحشة مقفرة.

وليت هذه الصفحة البيضاء من دنياه في البادية لم تمتد نحوها مدنسات الأوهام ومحرجات الآثام، فتأتي بالخطب العضال وسوء الأفك والبهتان، فتزعم أن الصبي الكريم قد عرض له ثمة جبرائيل أو نفر من الملائك عاليهم ثياب بيض فأمسكوا به، وشقوا عن صدره فأخرجوا قلبه، فأبانو منه شيئاً وغسلوه، ثم ردّوه إلى مكانه، فبان مع ما بان أهواء النفس ونزغات الشيطان، وإن هذا لعمري ليضحك الثكلى، فكيف صح في هذا الوهم أن يكون ضلال النفس وشقاؤها به في شيء محسوس كامن في الاحناء، فلو زال امّحى التيه والعناء؟ وأن يكون ما يعضد الاهواء في استدراج المرء إلى جحيم السيئات بعضٌ من هذا الكيان، موسوم بالخبث، مصوغ من الدنس، فهو وكر للوسواس الخناس، وحضن أمين لخيله ورَجُلِه، يرقل منه في الانحاء يبث الآفات والأدواء؟،

وكيف رضي هذا الافك أن يستقيم شأن محمد العظيم، ويذاد عن الهفوات بدرء مادتها من بدنه، فيكون في هذا قد اضطر إلى الطاعة، والبس ثوبها السني، ونحّي عن المعصية وشيطانها الغوي، فليس له اذن أن يجازى بالشكر على شكره ولا بالبر على بره؟ حيث وبقي من عداه من الاناسي مع ما في أجسادهم من تلك الاوشاب يكابدون المتاهات والاوصاب، مرغمين على الخبط في غرابيب التيه لداء مكين فيهم يدعوهم إليه، وليس لهم أمام سطوة القاسر الرهيب أن يكونوا أحرار أولي مشيئة تقف مختارة بهم على المكان بين النجدين، فكيف لربهم في العدل أن يعذبهم وقد جبلهم على أن يعصوه ويخرجوا عن طاعته؟

وليت الله سبحانه وهو الغفور ذو الرحمة الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً دلّ نبيه على منابت السوء في الأبدان فسعى إليها بالمباضع، ونحّاها عن أن تقف سداً منيعاً في وجه النور والشقاء إلى القلوب الدنفة، والنفوس الغويّة... ومع هذا فقد كان له أن يهديها، فهل ماتت يا ترى تلك المنابت؟ وأين صارت؟، وكيف كان لأهلها أن يأمنوا سطواتها، ويفوزوا بالنجاة من لهواتها؟.

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا).

في ظلال الأم

وغفت عين آمنة ناعمة قريرة، فروحها التي كانت بالأمس لا تزورها إلاّ يسيراً فهي تخفق بحبها واشفاقها في حي حليمة ـ صارت لا تبارحها، ولا تنأى عنها، فالنوى قد مات، والبعد قد اندثر، واحتضنت آمنة بعد كرب الفراق حبيبها، ووجدت الدفء الذي كانت تنشده، وراحت الأيام تنشر ظلال السعادة فوق بيت الأرملة المكدودة، إذ تسري فيه وتحوم حوله روح صبيها تغمره طيباً وهناءً، ومن فوقها روح ذلك الجد العظيم الذي لم يفتأ يضرع خد الشقاوة في دنياها، ويثاور أجنادها دونها، ويفرش لها ولولدها قلبه يقيهما عثرات الحياة وآلامها.

لقد كان يصل محمداً بالعظمة منذ صغره، وينسبه إلى المجد منذ حداثته، ويعلنها مراراً أمام بنيه وقومه، إن لهذا الغلام شأناً مجيداً فهو يوقره له ويكرمه، ويجله. ها هو عبد المطلب وقد ولى وهج الأصيل يتطامن، وأوار شمسه يخبو، وآن للناس أن يخرجوا من بيوتهم إلى الطلاقة تحت ظلالها، وعلى عادته وقد فرشت له الفرش في ظل الكعبة، جلس هناك، ومن حوله أبناؤه ومحبوه قد نكسوا رؤوسهم لهيبته، وردوا أبصارهم عنه لاعظامه، ويأتي ابن آمنة حاملاً في قلبه ثقل شموخه وجلاله، زاهياً بابراد السمو، فيتخطى وأطراف الفراش ليستوى على صدره عند جده، وحيث يتهلل وجه الشيخ بالأنس والاعجاب، تثور ثائرة أبنائه وأحبائه، فقد عظم لديهم فعل محمد، وصرخوا به

مستعظمين جرأته، ومضوا يجرونه إليهم ليجلس معهم إن لم يرضه أن يفترش التراب، أو يذهب ليلعب مع الاتراب، ولكن عبد المطلب الذي ضمن صدره بعض الادراك لحقيقته صاح في وجوههم:

(دعوا ابني، فو الله إن له لشأناً).

ويأخذه إليه ليجلسه في حجره ويمسح رأسه، وقد سره ما صنع. ونراه تارة أخرى قد امتلأ أهابه إجلالاً لابن عبد الله، وتعظيماً له لما عرفه من جليل شأنه، وأدركه من عظيم أمره، فحيث تتابعت على قريش الأيام المنكرة مع الجدب والمحول، واعضلت الشهور البائسة، فمات الكلأ، ونشف الضرع، واستطار البؤس، وينثال على عبد المطلب وجوه قومه شاكين ما به وبهم، متوسلين إليه أن يمد يديه إلى السماء فهو عندها غير ذميم، ويعزّ عليها أن تراه يستعطفها الاعانة فلا تعينه، ويستدرها الاغاثة فلا تغيثه، فقام في طلبهم ليرفع يديه إليها، دون ان يضع في راحتيهما عظيم مكانته عندها، وخطير محله لديها، ولكنه حين يرى العظيم الذي لا يسامى ان ثمة من هو أسمى منه وأجل منزلة، وكان هو محمد الذي يعتقد فيه جده أنه العظيم الذي لا يسامى، والجليل الذي لا يطاول، وهو القمين بأن تسأل به السماء، وتدعى إلى الرحمة ونشر الآلاء - خرج ويد محمد بيده، ومن خلفه قومه يعجبون لأمره معه، حتى إذا اصحر رفع يديه وقد وضع محمداً بينهما، وراح يبتهل إلى الله به، ويسأله غيثه العميم وهاطل النعيم.

غاية اليتم

ولت جحيم المصائب تتلظى في دنيا الصبي العظيم، فما إن تنطفئ لها وقدة حتى تشب أخرى أشد كَلَباً واستعاراً. فها هو وقد عزمت أمه على أن تذهب به إلى يثرب، وتعرّفه أخواله من بني النجار، علّها تجد في السفر إليهم خلاص روحها من أسر الألم التليد العنيد الذي لم يبارحها، وانفتاح مشاعرها التي انطوت على أساها القديم لتظل صاعق الشجو في أعماقها، ومضت آمنة في رغبتها، وحلت وابنها ضيفين مكرمين عند أهلها، ولكنها لم تجد بغيتها حيث رامت، ولم تعثر على ضالتها في مظنة الوجدان، كيف وقد امتلأت أرجاء يثرب بروح عبد الله الذي اقبر فيها، ومضى شبحه يطويها بيمينه، وينثر أمام عينيها مشاهد حياته السنية بعمر الورد معها بالأمس، فتكدر صفوها، وأزعجها هذا عن موطن راحتها، ووقعت من جديد في اوهاق مأساتها، وقد عادت حية تفيض بالعزم بعد ما كانت في سكرات الاحتضار. واحتبلها الشوق العارم إلى أن ترى أديم دار النابغة التي ضمّت في بطنها زوجها الحبيب، وراحت وابنها ينقلان الخطى إليها حتى بلغاها، وثمة غابت بحسها المرهف عن دنياها، وأطلت على عالم آخر وجدت فيه زوجها يهب لاستقبالها، تغمره اللهفة ويلفه الاشتياق، ليغمرها بترحابه واجلاله، ويشكو إليها مرارة النوى وألم البعاد، ويحثها على أن تنبذ المرارة بتعجيل اللحوق، وتجهز على الألم بسرعة المقدم، وحين عادت إلى

الأرض وجدت نفسها أمام دار الآلام، ولمحت الجدث الرهيب، فودت لو تسوى بها أرضه وتغيب في ثراه جوار الذي تضمنه، وكادت أن تهوي بعيداً عنه وكأنها شعرت بالخدر يجري في أوصالها، والرعدة تعصف بها، فأسرعت فألقت بنفسها عليه، فلثمت صعيده، ومضت تشمه، وتجري عليه فيض دموعها، وراحت تناجي من فيه:

يا عبد الله، يا شعلة الحب في هذا الفؤاد اللهيف.

ياعبقة العشق في هذا الكيان المعنّى في هواه.

يا أيها الباذخ في محله في الشعور الرهيف.ياعلوي النشيد الذي اعتصرته يد الدهر الرجوف

يا لحني المشنف الطروب الذي أتت العوادي على عوده في زهوه على ذراه.

يا شمس أحلامي التي تغشتها صروف النوى بدجاه.

هذه آمنة التي لزمتك شخصاً وأنت تنعم بالحياة، وطيفاً وأنت في حنايا الممات، وظلت مذ عرفتك تفيض بحبك، هذه هي في أشد القرب منك تناجيك، وتبثك همومها واشجانها، ولكنها في أشد البعد عنك حين لا تحس منك حركة، ولا تسمع لك ركزاً، فجسدك في أحناء التراب، وروحك في مطاوي الخفاء، وهذه بضعتك الزكية التي وقفت عليها في ظلمة بطني وأنت تأمل أن تطل عليك بوداعتها وطهرها ـ تقف اليوم

عليك وأنت في أحشاء رمسك ، لا تأمل أن تطلع عليها شمس الأبوة من فجرك، فهو قد ذوى وذبلت معه شمسه إلى الأبد.

ونهضت آمنة على جليل خطبها، والتفتت إلى ابنها الذي رأته وقد أخذت منه الغرابة مأخذها، وارهقه العجب للذي صارت إليه حال أمه عند ضريح أبيه، فهبْ أنه قد ضمّ في بطنه ذلك الأغرّ الكريم الذي عجلت عليه المنية فاختطفته من بين يديها وبددت أحلامها فيه، وقد كانت بنت على فتوته صروح المنى فتهاوت بعادية المنون، وأمست قاعاً صفصفاً:

أفلم يذبل أوار الحزن عليه، وقد اعتقبت على مصابها به الأيام؟ ألم تنطفئ وقدة الحنان إليه بشآبيب السلو والعزاء؟.

أولم تتكثف سحائب النسيان دون ذلك الانسان؟

أهكذا يخلد الوداد ويحيا الهيام؟

أم أنه عظيم الوفاء في علياء الهوى لجلال أيام مضت وكانت أبهى من البهاء؟

واهتز الصبي الحساس لما اختلج فيه، والهب حشاه أسى أمه، وأحس لأول وهلة بسعار اليتم، وخالطته لوعته، فأراد أن يبكي كأمه ولكن أنى يكون في حول صبي مثله أن تحرك فيه هذه اللواعج ماء مآقيه ليذرفه دموعاً تنطوي على حرارة الضنى وبأس المصاب؟.

وأمسكت أمه قلبها خشية أن يتمزق، إلاّ أن عنف الكرب وفرط الرزية قد هدا منه متين أركانه ليظل بعدها مع الضعف والهزال، وفرت آمنة بولدها من دنيا المرارة في جو القبر، وإنها منذ أن رأت قبر عبد الله شعرت كأن رهبة الموت باتت تسري في عروقها، وانشبت يد المنون مخالبها في قلبها المكدود، وسدت عليها منافذ الحياة، ولقد أقلقها بقاؤها في يثرب فأزمعت على الاياب إلى مكة، وهي أشد ما تكون نحولاً وكلالاً. وشدت رحل العودة، ومضت تقطع سبيلها، وكأنها لم تنس أن تنحو شطر القبر وتناجي رهينته:

ـ يا عبد الله لقد ضاقت عليّ الدنيا، ودخلني من عظيم الهول ما لا أرى معه يسير أمل بالحياة، ويوشك أن أذرف آخر أنفاسي وأقدم عليك، فنهنأ بالعيش الطيب الأمين في ظلال الانس المكين.

ولم يعتم هول المنون يَخُبّ سيره فيها حتى أتى عليها عند الأبواء، بين يدي ولدها الحبيب وحاضنته الأمينة.

مع شيخ البطحاء

بقي محمد لجده الذي وأى على نفسه أن يأخذ بيده إلى حياض الخير وينابيع النعمة، فينهل منها السراء، وينسى مصابه، وتسد عليه كل كوى الشعور باليتم والغربة والحرمان، فلم يزل معه يقرّبه ويدنيه، ويعظمه ويطريه، ويضمه حفياً به إلى صدره، ويضعه محبوراً به في حجره، ولا يأكل الطعام قبله، ولا يتركه في خلوة وحيداً، ولا ينام إلاّ حتى يعوده مراراً تحسباً لاذى يلم به، أو حاجة يشتهيها وإذا ما تصدر عبد المطلب مجلسه، وأحاط به القوم، دعاه فاجلسه بين يديه، ولم يفتأ يملأ أسماعهم باشادته به، وتعظيمه بشأنه، ولطالما تشدد على بنيه بالوصية به، والإحسان إليه، والعطف عليه، ليُتمه بأبيه، وفقده أمه، ولشأنه الكبير المرتقب.

وعند صبيحة يوم وقد رأى سيد قريش في الليل قبلها رؤيا عرف معناها وأدرك مغزاها، وقد جرّت باله إلى أيام قريبة وقع له فيها أمر فيه بعض تفسير رؤياه، ومنه انطلق بذهنه اللماح ينسج خيوط التفسير كله، تعينه مقولات العارفين، وأحاديث الكهنة الرهبان، دعا بنيه إلى أن يجتمعوا عنده ليقص عليهم امراً لا بدّ أن يعرفوه، فأبداها كلمات لها ثقل وجلال.

(رأيت البارحة وأنا نائم في الحجر، كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء، وضربت بأعناقها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهى منها

أعظم من نور الشمس سبعين ضعفا، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، وساعة تختفي، وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، فإذا دنوا منها اخرهم شاب لم ار قط أحسن منه وجهاً، ولا أطيب منه ريحاً، فيكسر ظهورهم، ويقلع أعينهم).

ولم ينس أن يشير إلى بعض معناها فقال لهم:

(إن من صلبي نبياً لوددت إني أدركت ذلك فآمنت به، فمن أدركه من ولدي فليؤمن به).

ثم راح يقص عليهم ماحدث له في تلك الأيام مما يمت إلى رؤياه بصلة وثيقة، عندما مضى في ركب من قريش إلى (الملك الحميري سيف بن ذي يزن) يهنئه برجوع الملك إليه، ويمدحه على حسن بلائه، وإذ يختلي به سيف يفضي إليه:

(يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به.. إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، من شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة).

ويمور في الشيخ شوقه إلى أن يعجل سيف في كشف الستر عن هذا الأمر، فقد ملك عليه به قلبه، وأجج الدهشة في روحه ولبه:

(يا أيها الملك مثلك من سر وبر، فما هو؟).

(إذا ولد بتهامة، غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الامامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة، هذا حينه الذي يولد فيه وقد وُلِدَ، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله).

وكأن الأيام لم تطق أن ترى محمداً ينعم في كنف جده بالخير والهناء، وقد آلت إلاّ أن تريه كل مكروه، وتناله بكل سوء، فعزمت على أن تبطش بالجد الطيب وتفتك به، وتحرم محمداً من رعايته وأخذه بيده، كما حرمته منهما من أبيه وأمه، لتترك محمداً وحيداً في ساحة المكرمات، يصنع مجده بيده، ويرتقي مراقي العلى بنفسه، وليس ثمة من يدفعه إلى ذلك أو يدله عليه إلاّ مدبّر الأمور من خلف الستور، فمادام له به شأن عظيم وغاية جليلة، فهو سيصيّره كاهلاً متيناً لأعباء المرام الجليل، وحادياً أميناً لركب المنشود الجسيم، وكان للمقادير ما رامت، وها هو عبد المطلب يسلم إلى ربه روحه بعد ما كان قد ملأ سمع ابنه أبي طالب، الشهم في بنيه، والماجد في قومه، بوصيته بمحمد، لقد دعاه أبوه إليه، وأدناه منه، وهو في غمرة مذهلة، من النزع، ومضى يتلو عليه وصيته بصوت ناكس، وكلمة كليلة:

(أنظر يا أبا طالب أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه، ولم يذق شفقة أمه، أنظر أن يكون من جسدك بمنزلة كبدك، فإني قد تركت بنيّ كلهم، وخصصتك به لأنك من أم أبيه، يا أبا طالب أن أدركت أيامه تعلم إني كنت أبصر الناس به، واعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بلسانك ويدك ومالك، فإنه والله سيسودكم، هل قبلت؟.)

ويرى الابن أباه ينوء بثقل هم كبير يشدد عليه وطأة الموت الذي أوشك أن يأتي على آخر فتيل عنده من الحياة، ويراه حين يلقي عليه وصيته المهيبة كأنما يقلع كلماتها من صخر، فلقد أرهقه تفكيره بما سيؤول إليه حال محمد عند سواه، وبسجية العيش التي سيكون عليها لدى غيره، وأدرك ان أباه يود أن يسمع منه كلمته واضحة بينة، صادقة جازمة، يعلمه بها أنه سيسير مع محمد بعده على النهج الذي دله عليه أبوه وإن شق المسار، وحفت به المتاعب والصعاب. ويطلقها أبو طالب تفوح بالصدق والحزم، وتمور باليقين والوفاء،

(قد فعلت والله على ذلك شاهد.)

وعندها وجد الشيخ غاية مرامه، واندحرت فلول تهمامه، أمام شموخ هذه الكلمة وجلالها في نفسه، ويبتسم لابنه عن ثغر مرتجف، وينضح ماء البشر من وجهه المتهلل، ويقولها مليئة بنشوة راحته واطمئنانه:

(الآن خفف علي الموت) .

في ربوع العم الكريم

وتكفله عمه أبو طالب، وكان له الأب في عطفه وحنوه، وكانت زوجه فاطمة بنت أسد كأمه في حنانها وحبها ودفء أحضانها، وقد غمرته بفيض اللطف، واعطته من قلبها ما لم تعط أحداً غيره من بنيها، فهو ينام عندها على الوثير، ويغدو كحيلاً دهيناً، ولا تبالي على أية حال كان بنوها، حتى لو ناموا على الخشن، و باتوا رُمْصاً شُعثاً ، فداءً لراحة محمد وقرباناً لها. لقد أجهد أبو طالب نفسه لمحمد كي ينسيه أنه يتيم بأبيه، واجهدت زوجه نفسها له كي تنسيه أنه يتيم بأمه، وعرفت أن لو كانت آمنة حية لأعطته كل وجودها، ولكان شنجة في أحشائها تصونه كما تصونها، وكذلك كانت فاطمة، وهكذا هو قد وجد نفسه عندها.

لقد كان حظ قريش من الأرض تلك الفيافي الضاوية الضارعة التي صهرت روحها الشمس فذابت، ونأت عن الأنهار الجارية فقتلها الظمأ، فلم تكن تجد فيها سبيل عيش إلاّ التجارة، ومسارب أخرى ضيقة، فلو بخلت عليها بالخير رمت بنفسها في لهوات النهب والسلب فيما بينها طريقاً إليه ولو كان دامياً.

ولقد كان مقام أبي طالب حيث ورث السيادة من أبيه لا يتيح له أن يكون تاجراً يقضي أوقاته في الحل والترحال، ويذر ما تمليه عليه منزلته في قريش هملاً، وليس هو ممن أسقم نفوسهم أودَهم عن المحجة، فيمضي مثلهم يخوض في شقوة الغارات الذميمة ان عزّت عليه سبيل

إلى غيرها تكفل رزقه، وراح يدير تجليات جوده وكرمه، وشؤون البيت الحرام. وبيته بما احتوته يداه من المال، حتى إذا نضب وخوى وفاضه عزّ على أبي طالب أن تخلو ساحة قريش من محامده التي راح يحاكي بها الفخار في محامد أبيه، والتي لا يأتي بأكثرها إلاّ بذل المال، فمضى يستدين من العباس أخيه، حتى إذا أثقله الدين أحس بحاجته إلى معين من الخير يقضي منه ديونه، وينجز به شؤونه، فأزمع على الرحيل بتجارة إلى الشام أمّل أن يظفر منها بما يبغي، فشدّ رحاله مع القافلة، وكأن محمداً قد ألفى في نفسه شوقاً إلى أن يجوب المسافات، ويقطع الفدافد والقفار، ويخوض في غمار المشقة في السفر البعيد، ليتزود من ذلك بالصلابة في الارادة، والقوة في التصميم، وطاقة الاحتمال في تجرع مرارة الاصطبار على الصعاب، وعسى أن يجد فيما يراه في سفره مع عمه إلى تلك البلاد النائية من صور الحياة وأشكال العمران ـ متعة الشعور، وبهجة الاحساس، ولذة الخاطر. وهذا هو وقد احتشد الجمع العازم على الرحيل. ومن بينهم عمه وقد اعتلوا ظهور إبلهم، وهموا أن يشرعوا في المسير، قد تعلق بركاب عمه قائلاً باستعطاف:

(إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم.)

فهبّ الملأ يصيح به ساخراً، ويزجره معنّفاً، وينحّيه عن عمه ، ولكن عمّه الذي أورى المشهد في نفسه لظى الشفقة والرأفة صاح فيهم وقد رفع ابن أخيه إليه ووضعه في حجره:

ـ (والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبداً.)

وامتد بصر الغلام النابه في المدى الفسيح، وراح يستلهم من طلاقته وامتداده متعة الصحو للبال، والانشراح للنفس، والبهجة للشعور، والارتياح للقلب المهزوز، وولى عمه يحوطه بما لديه من أسباب الحماية والرعاية من عاديات هذا السفر المضني، عدا حرّ الشمس الذي تكفلت به السماء، فظللت عليه بغمامة تدفعه بها عنه حتى وصلوا الغاية، وحطوا رحالهم على أعتاب الشام في مكان قيل انه كان عنده دير لراهب يسمونه (بحيرى)، وتفرقوا هناك، وذهب كل لشأنه ما خلا محمداً فإنه آوى إلى شجرة كانت جوار الدير، ولم يكن منها وقد استوى جالساً تحتها إلاّ أن تهصّرت غصونها عليه، ومالت بأطرافها إليه.

ومن على ديره كان الراهب(لو صحت رواية التاريخ قد أطل على المكان الذي حلت فيه رحال قريش، ومضى يقلّب بصره فيه، حتى وقع على محمد تحت الشجرة التي خشعت له جوارحها، فسرت الرعدة في أنحائه، وعظم الأمر عليه، وغدا يضرب بفكره يميناً وشمالاً ليجد حلاً لهذا المعضل، وبياناً لهذا الحدث العجيب، والتهبت أحشاؤه بضرام الشوق لمعرفة معنى هذا الغلام المثير، وإن عند بحيرى كما قيل لعلامات عهدت إليه لنبي هذا الزمان ، وقد يراها فيه فيعلم أنه هو النبي الموعود، ولم تُعيه الحيلة، وقرّ رأيه على أن يدعو الركب الذي يضم هذا

الغلام إلى طعام يصنعه لهم فيسألهم عنه، ويتفحصه هو بنفسه عن كثب لينفتح له باب النجاة من تلك الحيرة التي ناء بأثقالها.

وعجلان ما صنع الطعام، ودعاهم إليه، واكتظ بهم ديره وليس بينهم محمد، فقد تركوه عند أمتعتهم ورحالهم يحرسها لهم، فاستعظم ذلك بحيرى الذي لم يصنع ما صنع إلاّ لأجله، فناداهم معرّضاً بهم:

ـ(يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي).

فقال قائلهم:

(يا بحيرى ما تخلّف عنك احد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام).

وردّ عليهم:

(لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم).

وكأنّما فجّر في نفوسهم فورة الحياء لتركهم إياه خلفهم، فتلاوموا بينهم على تركه، ودعوه فأجلسوه معهم.

وظلّ الراهب يحدق فيه ببصره، ويدور به بين القديم والحاضر والآتي، يغور في دنيا الماضي، فترن في أذنه أصداء الكلمات التي فاح شذاها من فم المسيح مبشراً بنبي يأتي من بعده، ويعود إلى يومه الذي هو فيه فيرى صبياً عليه ملامح العظمة، ومخائل الجلال، وعلائم الشموخ، فيسري في نفسه اليقين أنه هو ذاك الذي انبعثت عبائر التبشير به من فم ابن مريم، وينقل خطى فكره إلى المستقبل فيراه نبياً قد صدح

باسم الحق والفضيلة، ودعا إلى الخير والهدى، فود أن لو تناهى به عمره حتى يلقاه نبيا، وينضوي تحت لوائه.

وينتهي الملأ من طعامه فينفض، ويمضي كل إلى رحله ومتاعه، ويبقى في الدير أبو طالب مع ابن أخيه لشأن أراده الراهب منهما، حتى إذا استقر المقام بالثلاثة على خلوتهم التفت بحيرى إلى محمد يسأله باللات والعزّى أن يكشف له عن ظهره عسى أن يرى عليه علامة يجد في علمه المخزون لديه أنها دليل على النبي الموعود، فلو كانت لديه لكان هو اياه، ولكن محمداً صاح في وجهه:

(لا تسألني بهما، فو الله ما أبغضت شيئاً كبغضي لهما).

وأتاح له أن ينظر ظهره فرأى فيه تلك العلامة، ثم التفت إلى عمه يسأله عن أشياء بقيت عنده مما قد قدّر أن تكون لديه:

ـ ما هذا الغلام منك ؟.

ـ ابني

لا ينبغي ان يكون أبوه حياً.

ـ هو ابن أخي.

ـ فما فعل أبوه.

ـ مات وأمه حبلى به.

وقف الراهب بسعيه عند هذا الحد، وقد جزم أن محمداً هذا هو النبي الموعود الذي بشرت به السماء من زمن بعيد، والتفت إلى عمه قائلاً:

ـ صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم).

ولم يزدد ابن عبد المطلب يقيناً بأن لإبن أخيه شأناً رافعاً، فلم تزل ترن في أذنيه كلمات أبيه والعارفين به عن شأنه، ولم يزل يجد منه من الأمر كل عظيم جسيم لا يليق به إلاّ عظيم الشأن جليله، فليس بعيداً عنه الامس حين خرج به مستسقياً، سائلاً الله أن يمن على عباده بالغيث، ومحمد حينها قد تعلق باستار الكعبة وأشار باصبعه إلى السماء، فلم يلبث ملياً حتى جاء السحاب المنبعق يحمل في أحشائه هاطل الخير، فغمر أبا طالب السرور، وقالها من فرط بهجته بما كان، وكبير اجلاله لقدر ابن عبد الله:

وابيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأراملِ

تلوذ به الهلاّك من آل هاشم فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ

وانه ليتذكر يوم خرج به إلى بعض شأنه، ونأى بهما المكان، فافحمه الجهد، واحزبه الظمأ، وامسى عسيراً عليه أن يتصبر حتى يرجع، فالتجأ إلى ابن أخيه يسأله الماء، فلم يكن منه إلاّ أن فتح له في ذلك المكان

الخاوي عين ماء شبم لذيذ فارتوى. وأنى له أن ينسى ما لإبن أخيه من عجيب أمره في بيته، وما تصير عليه مائدة الطعام التي تنصب لعياله عندما يكون محمد عليها حيث تتسامى عن النقص حتى يشبع كل من عليها، ويوم لا يكون عندها تبقى مع ضعفها وهوانها فسرعان ما تضمحل وتنتهي، ويبقى أهلها جياعاً، فكان يشتد في أن يحضره معهم عند طعامهم، ويبدأ به عند الشراب ليفيض وجوده بينهم البركة والعافية في زادهم، وإذا ما رأى أهله قد اجتمعوا على طعامهم وليس بينهم محمد ناداهم:

(كما أنتم حتى يأتي ابني).

وكثير من هذا لا ينساه أبو طالب، وينطلق منه إلى مقام اليقين المكين بأن لمحمد شأنا، ولا تزيده قصة الراهب – لو صدقت – مقدار نقير في ذلك اليقين

سمع أبو طالب الوصية من بحيرى وانطلق بابن أخيه إلى رحله، وأتمّ أمر تجارته، وشرع يغذ السير في سبيل العودة.

الرعي

لم تكن تجارة أبي طالب لترفع عنه عبء الفقر الذي أثقل كاهله، وتجلو عن ساحته معرة الاملاق الذي دهاه، وعزّ على محمد أن يرى عمه يرزح تحت ثقل العوز، وتُضرِع خده الحاجة، وأن يراه الناس بين غواشي البؤس ومهاد المتربة، فرغب إليه أن يأذن له في ان يرعى لقريش أنعامها ولو بالثمن البخس، علّه يرأب من الصدع الذي أحدثته المقادير في حاله شيئاً، فأذن له على مضض، فكان ينطلق بها غدوا إلى الأباطح وعند السفوح، بعيداً عن كل ما يكدر صفو الخلوة، حيث تنفتح له آفاق الصفاء في الكون الرحيب، فيدير فيها طرفه بنور البصيرة يتدبر فيما حوله من آيات الحكمة والعظمة والعدل، ثم يروح يرمق ذلك الانفلات الوحيد الذي تخوض فيه هذه الخليقة الواعية المختارة، والذي تجسد في ذلك الخروج الجاهر عن جنّة الاستقامة إلى جحيم المروق والحيدان، ومن نعمة القسطاس إلى داهمة البخس والاجحاف، ومن اشراق الحق إلى ظلام الباطل، ومن صروح الفضيلة إلى مهاوي الرذيلة، متاهٌ ممتد يغشّي حياة الناس فهو فيها الناموس والطريق. كان هذا هو دأبه زمان رعيه، يذوب في جلال الحق والحكمة الذي شعت به صفحات الوجود، ليتعمق فيه الشعور بعبثية العَمَه وتفاهة الاسفاف اللتين تكنّفتا الوجود البشري، ويجمح في نفسه له رجاء الخلاص من شقوة بلا نظير. وأدرك وهو يقود أنعامه إلى كل مكان معشب، ويجنّبها كل موضع

مجدب، ويمنعها من أن تتفرق وتنبثّ في الأرض أحاداً فتخطفها الذئاب ـ أن لا بدّ للناس من رائد يقودهم نحو الخير والهداية، ويسد في وجوههم مسارب الشر والغواية.

ولكن من يكون ذلك القائد الشفيق الفاتح، والرائد النصوح الذي لا يكذب أهله، والقربان الانساني الذي يجعل من نفسه مشعلاً يبصر به التائهون الذين أعصبت عيونهم بالليل ـ سبيل الرشاد اللاحب المشرق؟.

لقد أحس هو أنه يملك في نفسه وقلبه شعور ذلك العظيم وقدرته وعزمه، ولكن هل سيفتح الله له باب المجد بأعباء التحرير، منطلقاً على متون الأهاويل واثباج المنايا، يوزع فؤاده الرؤوف الرفيق أفلاذاً من نور ورحمة، تضيء دروب السالكين، و تغمر حياتهم بالأنس والسعادة، وتطير بهم على أجنحة الشوق والعشق إلى رحاب الفضيلة وسبحات الكمال؟.

حلف الفضول

حتى النفوس التي عاشت سجيس أيامها على الحيف والجور، والضمائر التي خوت أو كادت في مجادب التيه والعدوان، والقلوب التي راحت تخفق بالظلم فهو نبضها الواصب ـ كانت بعد حرب الفجار ترى من كوة ضيقة في الدهماء بصيص نور من شمس العدالة الآفلة، فيهيج فيها شوق دفين إلى شروقها من جديد لتستضيء بنورها في ظلمتها الطخياء.

ومضت تلقي تساؤلاتها:

ـ لماذا تراق الدماء؟.

ـ لماذا تسفك المهج ؟.

ـ لماذا لا ينتصف للمظلوم، ويؤخذ على يد الظالم؟.

ـ ولماذا يحبس عن الرجل الزبيدي ثمن بضاعته التي اشتراها منه العاص بن وائل؟.

ـ ولماذا تنتهب ابنة الخثعمي من لدن نبيه بن الحجاج؟.

واصغى الأكابر لتلك التساؤلات وفي أحشائها صرخة الزبيدي فوق أبي قبيس يستعدي على حابس حقه. وأينعت عزيمة الخير في قلب الزبير بن عبد المطلب، فعمد إلى رؤوس قريش فدعاهم إلى عقد حلف بينهم ينشدون منه انصاف المظلوم من ظالمه.

وتم ما أراده، وادى حلف الفضول بعض ما حُمّل، واراد محمد أن يعبّر عن حبه للفضيلة، وانتصاره للمظلومين، ومقته للظلم والظالمين، فدعا إليه، وحضر فيه، وقد تذكره يوماً فقال:

(ما أحبّ أنّ لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت).

خديجة

سمعت به خديجة كما سمع سواها فكان له عندها موضع الاكبار كما عندهم، وجاء ذكره أمامها بالاطراء والثناء، وأنه فتى قريش الأوحد في النبل والأمانة والصدق والترفع، فارتسمت له في روحها صورة الاعجاب، وأحاطت به في قلبها هاله البهاء، وأمكنته زمام الاجلال والتوقير، وهي وإن رأت فيه كما رأى غيرها فرع الدوحة الهاشمية الشامخة، وسلالة المجد التليد الباذخ، وأثير شيخ البطحاء الذي تظاهر اليتم والارهاص والاستشراف على جعله ذلك الملاك الذي أخذ على قلب عبد المطلب فضاء الحب والحنان، واستحوذ على أقطار حرصه واكباره وانتظاره ـ لكنها تحس في روحها ازاءه شيئاً آخر، كأن قلبها النقي العابق المستلهم راح يحدثها عن أمر يشدها إلى هذا الفتى المحبور بنعمة الكرامة واشراق السلامة.

خديجة ابنة خويلد هذه امرأة تاجرة، عظيمة الثراء، ترفل بحلل النعماء، زين غناها عفتها، ونزاهتُها، وتساميها عن الدنيا، وتعاليها عن الرذائل، فهي مضرب المثل للغنى والعفاف، وللطَول والحفاظ، وقد رامها كل رجل ماجد زوجاً مكرماً، وعشيراً معززاً، بعد ما كانت خسرت صحبة رجلين منهم، وعزفت نفسها عنهم، وانصرفت عن التفكير في شأن الزواج، كأن يدا خفية باتت تقودها إلى يوم مشهود من زواج تباركه السماء، وتحمده الأرض.

ثم كان ذلك الذي بدّل كفرانها بالزواج إيماناً به، وعزوفها عند اقبالاً عليه، ورغبتها عنه رغبة فيه ـ هو شموخ محمد الذي دانت له قريش بفريضة الاجلال حين رأت فيه ما لم تره في غيره من عظيم الخلق، وحميد الشمائل، فهو الصادق، الأمين، الكريم، الوقور، الحليم، الحكيم، النابه، الرصين، المتين، الذي صدح بفضله ثغر الزمن، فوعت صدحه وتشنفت أسماع كثيرة كان من بينها سمع خديجة.

وكان وعيها بمحمد ذلك الحب المتدبّر المكين الذي تمنت أن تسوق له المقادير أسباب المنى، وكان لها ما تمنّت، فحبائل الفقر لم تزل توهق عم محمد، وأطواقه لم تعتم تضيق عليه الخناق، وبالأمس حيث استنجد بتجارته، وبرعي ابن أخيه لقريش لم تنكفئ عنه أزمة البؤس، ولم تخمد جذوة من جذواته.

وعاد اليوم وبدفقة أمل مسعدة فألقى في روع محمد أن يسبق فتيان قريش ورجالها إلى خديجة فيتاجر لها بمالها، عساه يفوز من ذلك بما تمناه من سدّ خلة الفقر لدى عمه.

قال أبو طالب:

(يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ علينا الزمان، والحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها الى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالها، ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها

عنك من طهارتك،وان خديجة قد استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلّمها؟)

فقال محمد وقد تنسم شميم البهجة إذ حسب أنه سيسلك درباً يريح فيه عمه من بعض آلام فقره...

(ما أحببت).

ومضى أبو طالب إلى خديجة ليحدثها في الأمر، وأحست هي أنه قد جاءت به تلك المقادير المسددة التي رقّت لذلك الفؤاد المجذوب، فلم يكد عمه يحدثها عن رغبة أنبل الفتيان، وغرّة العرب، وانشودة الركبان ـ في أن يتاجر في مالها، حتى ابتدرت بالجواب الرقيق الذي يشف بل يبدي خبيئة القلب المعجب المشدود.

(**لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف لو سألته لحبيب قريب؟)**

وشمّر محمد اذياله للأمر، وانطلق إلى خديجة لتعطيه تجارتها، وتمنّت له السفر المطمئن الخالي من الأوصاب، والاياب بالتسديد والسلامة، وتركت عنده خادمها ميسرة عضداً ومؤازراً.

ومضت القافلة تدوس جمر الصحراء الملتهب، ومحمد مع ميسرة يغمر مرآه بل يدهش باله بأروع صورة للانسان رآها على وجه الأرض، الانسان الذي صبت فيه من عين الكمال أرفع الشمائل والخصال، مالم يلمحه ميسرة إلاّ في عالم الخيال، فلقد نسي في جنب محمد وهو

الخادم التابع أنه كذلك، وهو لم يكن يشعر بذلك إلاّ في دنيا النقص مع غير محمد، أما في ظلال النبل والسمو معه فقد تذوق رحيق الكرامة وطعم الانسانية. ولم يكن هذا وحده ما حيّر لبه من محمد، فقد كانت معه تلك المذهلات من الأمور.

الغمامة التي ظلّلت عليه تقيه ضراوة الحر، البعيران اللذان كلاّ عن المسير، وسقطا متعبين لا يطيقان حراكا، فلما مسح على أرجلهما قاما وكأنما فاض فيهما معين العافية، الراهب ثمة في الشام حين أمسك بميسرة وراح يسأله بالحاف عن محمد وقد رآه جالساً تحت شجرة قريبة منهما حيث تهصرت عليه أفنانها اجلالاً واكباراً:

ـ (من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟.)

ـ (هذا رجل من قريش من أهل الحرم.)

ـ ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي.)

فأسرّها ميسرة في نفسه، وعزم على أن يجعلها أغرب ما يقصه على سمع ابنة خويلد من أمر محمد، ثم يجعل ما رآه سواها دليلاً عليها.

(قبل ان ينطوي هذا المشهد المثير يروق للقلم ان يسجل تحفظ الحريصين على سلامة السيرة من الواث الوضع المريب والفعل الكائد اللذين دخلاها ليفتناها عن جلالها وكمالها، وكان مما استفزهم فيها ورود الرواية التاريخية بل تكرارها عن دور الرهبان في التبشير بالنبوة الخاتمة ، وقد شنعوا عليها فساد سندها ودلالتها وهدفها المريض.على

ان ثمة من لا يرى فيها وفي مثيلها من تبشير اليهود في يثرب الا معاضدة للحديث القرآني الصادق عن وجود خبر النبي الامي في المصادر السماوية لا سيما اقربها الى ظهوره (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل)،(وكانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا).

ومضى محمد في شأن تجارته بحسن خلقه وطيب معاملته فنال بذلك الاجلال والمحبة والربح الوفير، وميسرة معه مأخوذ بذلك السلوك البديع لهذا المثال الرفيع، وان أنوار سجاياه وشمائله لتنشر في نفسه آفاقاً من الودّ لهذا الذي عجز فكره عن ادراكه.

لقد حسبه قطعة من هذا الكون المحكم المتوازن، فهو يمشي معه على ناموسه المتقن، وصدق ظنه، فمحمد وقد وشجت به كل معاني الخير، وجمعت لديه كل خصال الحق، تسامى عن دنس الانفلات عن ركب الاستقامة.

وعاد محمد من تجارته وقلب ميسرة يكاد يطير من بين حناياه بفرط رغبته في أن يبث سيدته ما قد كان من أمر محمد في تجارتها، ويقص عليها من نبئه ما يحير مثلها. حتى إذا بلغا مكان الظهران، رغب إلى محمد أن يسرع إلى خديجة فيشيع في أرجائها عبير البشرى بما جعل الله لها على يده من البركة.

ولم يلبث ركب التجارة ملياً حتى كان على أعتاب مكة، حيث توجه محمد إلى بيت خديجة ليسلمها أموالها، وينصرف عنها مشيعاً بالشكر والثناء، وها هنا انتفض ميسرة ولهاثه لا يزال حياً لشوقه المصطرع فيه إلى بث سيدته ما رآه من محمد، وراح يعيد على سمعها ذكر المشاهد التي رآها، فكان لها ما كان له، وزادتها يقيناً بشأنه، وشوقاً إلى الشروع في المسير شطره.

وعوّلت على رفيقتها نفيسة، وطلبت منها أن تذهب إلى محمد لتحدثه في أمر الزواج بها، وانطلقت نفيسة باعباء هذه الرغبة الصادقة التي ابتعثها الحب والاعجاب والاكبار، يفوح من ثناياها الدعاء لصاحبتها أن يجمع الله شملها بمن أعجبت بكماله وخصاله. حتى إذا وصلت نفيسة محمداً قالت له متوفزة:

(يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟).

(ما بيدي ما أتزوج به).

(فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟).

(فمن هي؟).

(خديجة).

وتختم نفيسة المشهد بقولها عن لسان خديجة:

(يا ابن عم إني رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك).

لقد رضي محمد وهو الشباب الضاحك الالق أن يسكن إلى روض اوشك ان تتهكم نضرته، وأن يشرق في نهار كليل، وأن يقرن نفسه بابنة خويلد التي تصرمت سنيّ شبابها ـ لأنه وجد الانسانة المحبة الوفية، وهل ثمة في قيم الدنيا أبهى و أسنى من خصيصة الحب وسجية الوفاء؟

فوا عجباً لذلك الذي صوّب سهم الأحن والشنآن إلى فجر الكمال، فزعم أن محمداً عبد شهوة جامحة لم تزل تصفده باغلالها، وتدفعه راغماً إلى السروح بين أحضان النساء إخماداً لجذوتها، واسكاتاً لصرختها، فهل في زواجه من خديجة شيء من ذلك، أو هدى إليه، أو دليل عليه؟، وقد تزوجها وهي وشيكاً ما تقع في هوة الخواء، وكان يقدر أن ينآى عنها إلى سواها من هي بعد في الروض وردة عاطرة، فواحة بالسحر والأريج، بل كان يمكنه في العمر المديد مع خديجة أن يقرن نفسه بسواها، مدفوعاً بشهوته التي تنسب إليه عدْواً وإفكا، ولم يركن إليها السنين المتطاولة وهو يتفجر حباً ووفاءً، ولكنه وهو فيض الحب والخير والرحمة لم يفتح بابه لخديجة ولا لمن تلتها إلاّ لتلك السجايا الرفيعة في نفسه، بعيداً عن الشهوة العمياء والرغبة الجامحة، ومحمد هو محمد قصة النبل والطهر والعلاء ولو كره المبطلون.

وانطلق محمد حافداً على الدرب إلى ابنة خويلد، فمضى إلى عمه الكريم، وقصّ عليه الأمر، فوجد له في قلبه غاية الرضا، وهبّ أبو طالب إلى أخيه حمزة، ورغب إليه أن يشركه ومحمداً في الذهاب إلى أبي خديجة لخطبتها منه، ولم تمض ساعة إلاّ والثلاثة في دار خويلد الذي قام مرحباً مبجلاً، وفرش لهم قلبه، وغشاهم بالتكريم، وقد طفح وجهه بالبشر للأمر الذي عرضوا عليه، وأبرم في رحاب الأنس والمسرة، وقام أبو طالب ليتكلم في هذا الحدث الميمون فقال:

(الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم، وزرع اسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجا، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم ان ابن أخي هذا لا يوزن برجل الاّ رجح به شرفا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قلّ فان المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد... وهو والله بعد له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم).

وامتلأ قلب خديجة المحبة بنشوة الانتصار، وأيقنت أن سوف لن يمر بروضة سرائها التي زرعتها بين عيني محمد وقلبه عاصف سوء يمحق نضرتها، ولا سدفة ليل تمحو لألاءها، ونالت خديجة منتهى رجائها، محمداً العظيم، وسكن إليها هو وهمه خديجة المحبة الوفية الطاهرة.

الجورائق، والنسيم بليل، والأرض تكاد تضحك للسماء، وأهلها قد ركبوا متن الابتشار في يوم وديع باسم لطفت نسائمه وشفّت، وخارت غلواء لظاه وهدت، وعاد يوماً وكأنما لم يشتمل عليه دهر ولا احتواه زمان، قرت به العيون، وطفحت به أفراح القلوب، وارتفعت به النفوس المكدودة تدور في أفق الهناء، إلاّ نفساً واحدة أضناها ما ألمّ بها من كرب المخاض، فراحت تنوء بأثقاله، وإلى جوارها نفس أخرى شاركتها إذاها فعاشته أو كادت، فهذه ابنة أسد الح عليها الطلق بأوجاعه، ففجأها إلى البيت الحرام، وكأين من باكية شاكية لجأت إلى ربها في رحابه متعلقة باستاره فاسعفت، وكم ذي حاجة ملهوف سعى فيها إلى مليكه عنده فنالها، وإن فاطمة ليست أهون على الله من هذا أو تلك، وفي أحشائها راح جنين العظمة يشق استار الحجب الثلاث، ليطل بسموه على هبوط الحياة وسقوطها، ليكون مناراً وعلماً وهادياً.

وفي حمأة الشدة وسكرة الآلام شخصت فاطمة ببصرها إلى السماء، ونادت:

(يا ربّ إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدي ابراهيم الخليل، وأنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت، والمولود الذي في بطني إلاّ ما يسّرت علي ولادتي).

إنها مؤمنة بالله وكتبه ورسله، متبعة هداه الذي جاء به جدها ابراهيم، فهي تستشفع بحامل النور ورافع المشعل الذي استضاءت بسنائه في دياجي الضلالة، وبالعظيم الذي تهم أن تنشق عنه، وهي تصب في أكف الضراعة دموع التوسل فترفعها عابقة بالخشوع إلى بارئها عساه أن يرق لها وقد هدّتها لأواء الولادة، وليس لديها على دفع مكارهها حيلة، ولا على صدها سلطان.

وما كان هم فاطمة حين سعت إلى البيت إلاّ أن تبث شكواها إلى بارئها من أطهر محل وأسمى مكان، ثم توؤب إلى بيتها لتستكمل فصول الولادة. ولكن السماء وقد أرادت غير ذلك، غالبة على ما أرادت، فشلت قوى فاطمة في بيتها الحرام، وأماتت فيها عزيمة الرجوع، فأناخت رحلها فيه، ولبثت تتربص ساعة تنبثق عنها نفحة اللطف الزكية. وبعد حين تدفقت أنفاس الوليد العظيم في البيت الكريم، وكانت مفخرة الأبد، ليس تبلي جدّتها الليالي، ولا تذهب بشموخها الأيام.

ودّت فاطمة أن تسمي طفلها أسدا، فهو اسم أبيها الراحل ففعلت، ولكن أباه وقد أتاه النبأ وسما به إلى دنيا البشائر، وهبّ إلى زوجه التي تبسم فجرها عن شمس العلاء، ومضى يحدق في جبينه فرأى فيه مخائل العظمة، ورونق السمو ـ قلده اسماً خليقاً بأن يضم في سبحاته بعض معنى هذا الصبي المجيد، فكان (علياً).

وكانت السماء على موعد مع ابن عبد الله فبصّرته شأن ابن أبي طالب ومداه في دنيا المعالي، بعد ما كانت قد بصّرته شأنه هو وعرّفته مداه الذي هو قبسة من قبسات التجلي لشأن واهبه العظيم. وفتحت في نفسه آفاق المحبة لهذا الصبي، وقد وجد محمد أن من العسير عليه أن يلف ابن عمه ستر البعد عنه، فطلب من أمه أن تجعل مهده قرب فراشه، حتى لقد كان يقضي له بعض ما هو على أمه، يسقيه اللبن، ويهز مهده، ويهدهد عليه، ويناغيه، ويأنس آنات كثيرة بعناقه وضمه إلى صدره.

ولقد كان قلبه الزاهر العاطرمرتع ذلك الصبي الزكي ، ومعراج تلك البراءة الودود.وكان يحمله أحياناً ويمضي به في تأملاته وخلواته وتحنثه بعيداً عن العيون بين الشعاب والوديان، وكأنّ له معه سراً فهو يخشى أن يعلمه أحد سواهما، لقد كان محبوراً به، ويجد في جنبه انشراح الصدر، وراحة البال، وبهجة الخاطر، وقد عاف حياة الناس الصاخبة الصارخة، وسكن إلى دنيا علي البريئة الحالمة، ولكم ودّ ان لو تناهب به الأمور إلى أن يكون ابن عمه رهين رعايته وأحاطته وحده، ليتسنى له أن يرتقي به مدارج الكرامة ومراقي العلياء، حين لا يرى الصبي إلاّ إشراق روح محمد، فيروح يحتسي من كأسها الروّية رحيق الطهر والجلال.

وتفتح السماء له السبيل إلى ما تمنى، فمن أمس وابن عبد المطلب يتلوى في كنف البؤس، ويتضور من ضيق الخناق عليه، وقد باء منه بالألم المرير والثقل الفادح، فليس غريباً أن يشق عليه في المعيشة عديد

ولده، ومن أمس كان محمد يذرف دمع الترحم لحال عمه، وكم ناضل عنه جند الضنى الا أنها كانت أبرع في النضال، فظل عمه مهيضاً ضاوياً، واليوم ومحمد في بيته بعيداً عن دنيا الاملاق في بيت كافله، رام أن يصرف بعض جهده عن عاتقه، فمضى إلى عميه حمزة والعباس يترجاهما أن يظاهراه في التخفيف عن كاهل أخيهما، فيأخذ كل واحد منهم واحداً من بنيه، فأخذ العباس طالباً، وضمّ حمزة إليه جعفرا، أما محمد فقد مدّ يداً تحركها إرادة الله وحكمته، ووضعها في يد علي، وضمّه إليه، وقالها بينهم:

(لقد اخترت من اختاره الله لي).

خطوات قد ترى وقد لفتها غواشي الخبط، وتغشتها سدف الارتجال، فليس لها في جنب المشيئة الحكيمة والهدي العلوي محط أو مكان، ولكنها والحق أقول قبس ساطع للحكمة البالغة، وبيان رائع لارادة الله النافذة، فقد شاءت أن يرتضع علي على حداثته وصباه لبان الكمال من معينه في فؤاد محمد،ليعود امتداده بالسلسل الزلال من حكمته وشمائله واسراره.

الفتى والشيوخ

بنْية كعبة الله وبيت أصنام قريش عاث بها بالأمس سيل أحال سلامتها آلاما، وعافيتها أسقاما، وأوردها الضعف والهزال، فلم تعد تطيق أن تقف على قدم، وهبّت قريش لاعمارها لتصون موطن مجدها وعرش الهتها عن الانكسار، وفرقت من أمر هدم البيت، وطغت عليها أمواج مستفحلة من الخشية، ودهاها تيار شديد من التردد، وسكنت تفكر في ما تفعل، ولكن ابن المغيرة شق الصفوف الوجلة وتقدم نحو البيت وارتقاه، ورفع طرفه إلى السماء ونادى:

(اللهم لا نريد إلاّ الخير.)

ثم أهوى بمعوله على جسمه المنهوك، يهدم أركانه، وكادت قلوب الناظرين الواجفة أن تسقط بين أقدامهم فأمسكوها بأيديهم، وغضّوا أطرافهم، ونكسوا رؤوسهم، وفرّوا إلى بيوتهم خوف نزول العذاب، ولم ينزل، فتريثوا إلى غد، فلعل الصباح لا يأتيه إلاّ وهو رهينة النكال والأخذ الأليم. وطلع النهار، واسرع الوليد مبادراً إلى شأنه في هدم حيطان الكعبة، فعجب القوم، واستخذى ما قد نزق في قلوبهم من الوجل، ومات ذلك الصارف عن هدمها لاصلاحها، فاجتمعوا عليها وقسّموها أقساماً، لكل قوم قسم يهدمونه، ويجمعون له الحجارة ويبنونه من جديد، ليهون عليهم بذلك أمر اصلاح البيت، وتشترك أطرافهم بفخره، ولا يستأثر به بعضهم على بعض، حتى إذا بلغوا مكان الركن ثار بينهم

قتام الخلاف، بل شب ضرام النزاع، واصلتت السيوف، والتمعت رؤوس الحراب، وهبت حمية العصبية تدفع الناس إلى القتال، وقام بنو عبد الدار وبنو لؤي فتعاقدوا بجفنة الدم على البذل والفداء دون مكرمة الدهر في وضع الركن في محله، فذاك شامخ العز وباذخ الشرف، فمن ذاك الذي يخلد الدهر ذكره في صفحته الزاهرة، حين يقوم بزهو الكبرياء ورفعة الفخار بوضع الحجر الأسود في مكانه؟!

هذا ما قد صير صفو قريش كدرا، وعذْب أمنها رَنَقا، وجعل الجموح يدوي في أنحائها، وكاد أن يضرم فيها ناره الغوّالة، فلا تذرها إلاّ رماداً، وظلّت قريش تتجرع مرارة ما ألمّ بها ليالي هي كالسنون، ولولا حنكة الكبار، وفطنة الشيوخ الذين عركتهم تجارب الحياة، وضرّستهم أيامها، فقر في أذهانهم منها نوربصيرة وضياء حكمة ـ لكانت قريش فريسة صراعها الرهيب، فقد أشاروا عليها بالاجتماع في باحة المسجد عسى أن ترى هناك بصيص نور يخرجها من دهماء خصامها إلى نهار السلام، وفعلت، فقام في الملأ أمية بن المغيرة، ودلّهم على ما ليس لأحد فيه مغمز فقال:

(يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد)

فكأنه فجّر فيهم بهذا عيون المزن، فانطفأت لظى الصراع أو أوشكت، وهفت النفوس صوب الباب، وتسمرت فيه العيون ترتقب أول

داخل منه عليهم، ليكون ذلك اللطف الذي يسري في غلواء نزاعهم فيبير عرامته، ويمحو دويه وصفيقه، ويجلو بيد الخير التي يمدها إلى قلوبهم التي تجمح فيها غيلان الشر ـ صروفه، ويسكب برد الأمن والطمأنينة في نفوسهم الثائرة، ويعيدهم إلى قرارهم الذي لم يطل عهدهم بالسكون إليه؟

ودخل محمد عليهم فصاحوا جميعاً وما شذّ لهم صوت:

(هذا الأمين رضينا).

واطلعوه على ما هم فيه مختلفون، وانبثقت في نفسه من سداد رأيه فكرة لمّاحة علم أن سيصيب بها للخلاف مقتلاً، فدعا برداء ، ووضع الحجر الأقدس فيه، ثم أمر كل كبير من عِلْية القوم أن يرفع طرفاً من أطرافه، حتى إذا وصلوا به محل الركن أخذه هو فوضعه فيه، فنال في هذا فخارين فخار درء الغائلة، وفخار وضع الحجر الأسود في محلّه.

بداية الطريق

خديجة أمست تتلظى بنار حيرتها التي اذكتها فيها حال محمد، وما قد ألمّ به من عارض عجيب، فها هو طويل الفكرة، كثير الصمت، يلذ له أن يفكر ملياً، ويمعن النظر فيما حوله، ويطيب له أن يخلو مع نفسه يحدثها ويسهر معها في نجاء حبيب.

فلم هذا كله يا ترى؟

ألأنّ محمد كره الحياة مع زوجه المسنّة؟

أم أن الذي اجتاله عن موطن عادته شيء ليس في مقدور خديجة أن تعلمه، وليس لأهل الزيغ أن يحكموا عليه بأنه الخيال العابث، والمزاج السوداوي، والطبع الكاسف؟. وصمتت خديجة على ما ترى، وتمنت أن تلفي الأيام وقد أفصحت عن مكنون ما أضناها. ولشد ما كان يثيرها أنه يدعها والناس جميعاً، ويمضي بعيداً إلى غار في جبل وجد عنده منتهى دعته وغاية بهجته، ولطالما أحست بالخطر عليه، وخشيت عليه الهلكة، فسعت إليه حثيثاً ومعها صنعة يده وصورته الفريدة علي، حتى إذا وجدته في غاره وقد أغرق في الخشوع، وطواه الصعد في غمرات النور، هدأت وقرت، وخمد اوار الخوف في نفسها عليه.

وتكر الأيام، ويتعاقب الجديدان على خديجة، لترى أن ما قد استغربت بالأمس أضحى عادة، فسكن هيج أفكارها، وتعودت أن تنقل خطاها إليه في بعض مآربه، يصحبها غذيّ فكره وربيب عواطفه

وأحاسيسه، فيغرقان معه في خشوعه وتضرعه ولهفته وأشواق انتظاره، حتى إذا نقع الفؤاد الضاحي، وابتشرت النفس الاسيانة، عادا ولكن بغير محمد، فهو وقلبه والسماء في وقفة حالمة يعز عليه أن يقطعها، وقد ارتقت مشاعره آفاق العظمة والجلال تقدس الله وتسبحه، وتعلن لديه أنها براء من الشرك والضلال اللذين راح الناس يتخبطون في دياجيرهما، ويصطرعون في غياهبهما، وإنها لتميّز حقداً على كل معبود تنصبه الحماقات رباً يُعبد مع الله أو من دونه، وإنها لتود أن يأتي يوم وقد جاش فيها البرم بفرط العنفوان فعتت على أمر الشيطان، وراحت تخضد شوكته، وتدك قلاعه، وتقمع غيّه وزيفه اللذين اعلقا القلوب، واستحوذا على النفوس.

وطالما زارته وهو في دنيا الكرى في بيته أو عتمة غاره الرؤى الصادقة السنية حتى كأنها فلق الصبح، تغرس في نفسه ادراك ذاته، ومعنى وجوده، وأنه ذو الشأن العظيم المرتقب، فتجعله يشحذ ظُبا الهمه في قلبه، حتى إذا حان موعد اللقاء لم يصعب عليه مرأى زائر الغيب، وكان أجلّ من أن يتخزع، أو يفزع، أو يتراجع عن حمل العبء الفادح، والاصطبار على ما يجره عليه من عناء وأوصاب.

إطلالة الوحي

قد آن لغواشي السكرة الجاثمة على كاهل الأرض أن تمّحي، وان تنجاب سجف العمى، وتندحر فلول الغواية، وحان للسماء أن تقول قولتها، فترمي بسداد الحق متاهة ظلام الباطل، وبنور الهدى دجى الضلالة، وإن ترفع عن الأرض ما رزحت تحته من أثقال الغي، واعباء التيه، وغشاوات الحيرة والضياع.

لم تعد السماء تطيق أن تبصر مأساة الأرض، حيث قدس معنى الانسان تصرعه في منحر المهانة يد الشهوات، وذلك السلام المكروب، والأمن المسلوب، والخضوع لارباب المتاهات من دون البارئ العظيم، من أصنام منصوبة تخر لها الجباه، وتعنو لها الرقاب، وشمس قد استهوت أهلهاوسلبهم حبها النهى، وتركهم يعمهون في عشوة تقديسها، أو نجوم، وجن، وسوائم، وبشر، واهواء، ورغبات، ارباب شتى لا تضر ولا تنفع، وليس لها حول ولا طول، راح الألى يدينون لها بالربوبية يصطرعون في حمأة اللهاث، ويصلون جحيم الشقوة في شرائعهم الخاوية وطرائقهم الدنفة. وقد آد لطف السماء أن لا تتفتح عيونه عن معينه، وأن لا ينشق فجره عن اشراقه، حيث أغرق أهل الأرض في الخور والحيدان، ودبّ الشيطان فيهم، وباض وفرّخ في أكنانهم، وجعل لهم نهج الغواية والعماية نهجاً يسلكونه، ودرباً يسيرون عليه.

وهذه جزيرة العرب بمحورها الروحي التليد (مكة)، بل بدرة الأرض فيها، ومنطلق دحوها (الكعبة) والمسجد الحرام، لم تسلم من شرور الفساد بكل أشكاله، في العقيدة، والعادات والتقاليد، والممارسات، حيث كلها ضلال، وشذوذ، واسفاف، وعدوان، وركون إلى الهوى الأحمق، البعيد كل البعيد عن العقل السليم، والذوق الرضي، والروح الانسانية، وبكلمة جامعة كل ما تعج به شرعة الشيطان والأهواء والنزعات الخاطئة: من غوايات، وحماقات، وافراط، وتفريط، وسحق للقيم السامية، والأصول والأعراف النبيلة، كالشرك، و عبادة الأوثان، والنهب، والسلب، والعدوان على الآخرين، والعلائق الاجتماعية الفاسدة، والوأد، والربا، ومعاقرة الخمرة، و الدعارة، وقتل الأولاد للاملاق، وكل ما هو من عوائد الانهيار الروحي والعقلي والثقافي والاخلاقي، ذلك الانهيار الذي كان يضرب به المثل في الانحطاط على أقبح مستوياته وأشكاله.

ولكم ذرفت محاجر الرحمة ماءها حزناً على ورّاد هول الضلالة، وهلاّك الضياع، وكم عصف في أحنائها لاعج المرارة لأهل الخبط والعشوات، وقد باؤوا بالخطوب والكربات، ولكم تفجرت أكباد المبصرين ممن تساموا عن تفاهة قومهم أشفاقاً عليهم، حيث طحنتهم رحى المتاهات، واعتصرتهم أطباق الشقاوات، فهبّوا يصرخون بهم أن اربعوا على ظلعكم، وكفوا عن الخوض في غمرات البشاعة، وأنكم

وشيكاً ما يطلع عليكم من فجر الرحمة نور الإيمان والهدى، فتربصوا، ولا تسارعوا في الأثم والعدوان.

وحتى بنو يهود ولّوامن سابق علمهم وقديم عهودهم يبشرون بحلول العهد الذي يخرج فيه للدنيا مصلح عظيم يكون على يده انتكاث فتل الشيطان، ولكنهم خصّوه بهم، وهدّدوا من حولهم أن سيقتلونهم به قتل عادٍ وإرَم.

وتكلمت السماء، وانصتت الأرض، وخشعت أرجاء الكون، وتهلّلت اسارير الملائك، وعلا تحميدهم، وارتدت انفاس الابالسة، وسكنت اجراسهم، فقد ألقي الأمر الجسيم على محمد، وراح اللطف يباغم الأرض بأهازيج الرحمة، وشدوالرفق، وتغريد الحنان .

وهبط جبريل على القلب العظيم في سبحات تضرعه بكلمة الله وبعض كلامه:

(اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم لم، علّم الإنسان ما لم يعلم).

اقرأ على مسمع الدهماء وعبيدها الخابطين في ديماسها ـ باسم الله فيض النور والاشراق، منشئ الخلق وواهب الحياة، ومن قلدها في بني الانسان أسمى وسام، حين أكرمها بنعمة العقل، وأعزها بكرامة الفهم والاختيار.

أخذ محمد جسيم ما ألقي عليه من ربه من وحيه بعزيمة الهمام، لم يرعد ولم يتزلزل، وغربت شمس اللقاء، فآب الأمين بغبطة آسرة وحبور طافح لما أعزه الله من كرامة النبوة، وأوى إلى بيته العاطر، حيث مسحت يد الزوج الحانية على قلبه الخاشع بروعة التصديق، ومضت تذرف دموع السرور، فقد صَدَقت ظنونها، وها هو محمد كما كانت تتوسم فيه، ونالت عظيم الحياة وفذها. ولم تحدثها نفسها بالريبة في أمره، وما شاءت أبداً (كما قيل) أن تسرّ ورقة بن نوفل أو تسأله عن خبر محمد ليرى فيه رأيه، فليس من حكمة السماء أن توحي إلى من لا يعرفها، وأن تضع أمانتها الكبرى عند من لم تبصّره شأنه ودوره، ولم تمد بينها وبينه قبل ساعة الصفر جسور التعارف، ولم تثقف مصطفاها لأعظم المهام بإرهاصات النبوة.

وهكذا أطل من عليا المجد وجه محمد.

محمد الصبح الذي تنفس من بهاء اللطف، لتنهمر من سراجه الوهاج أنوار الهداية تكشف غواشي العمى، وظلمات التيه، وليالي الانحراف.

محمد الطلاقة التي راحت هلّة بسمتها الحالمة الطروب تستطير بالبشر والوداعة، يغمران أجواز الحياة المكفهرة العبوس ببهجة الدهر وسرّاء الأبد.

محمد الروض العابق الفينان الذي انهلّ بالحسن والرواء والعبير حيث تضوعت فيه كل وردة ممتلئة الأهاب زهواً وطيباً.

محمد هالة الصفاء والنقاء تذري فلول الالواث والدنس والزيف، لتعود صفحة الواقع المحبور بالسلامة اصفى من صحو الربيع، وأنقى من ندى السحر.

محمد الوعي الفذ في قمة الفهم والعلم، يكشف داجيات الجهل والبلادة بأمره المشهود (اقرأ)، ومساره العملاق (علم بالقلم).

محمد هو كل نبي مضى كان ينفث النجيع من جراح القلب لتضوع أريجاً، وتشع نوراً، ليعود العبير والضياء عطاء تلك الكلوم الراعفة التي حفرتها في ذلك الفؤاد المقدس الرهيف ـ هموم الكفاح على طريق التحرير، تحرير هذا الإنسان المستخلف المكين من كل العبوديات، ما خلا عبادة ربه الحق المبين.

محمد هو كل منقذ كان يباغم اعتسف يومه الصارخ باللحون المشنّفة العِذاب، ويداعب غوائل الطيش بترانيم الرفق والسعة والحنان، ويمزق جسمه المنهوك افلاذاً بحراب التضحية والفداء والإيثار، ليصنع من أوصاله الزكية الطهور قوارب نجاة يعبر عليها طلاب الخلاص من غرقى المتاهة إلى شاطئ الأمان.

محمد هو منتهى اللطف، يكسر الأغلال، ويفك الكبول، ويجلو الحنادس، ويفتح الآفاق، وينشر مرابع الضياء، ويبعث في الحياة روح العزة والكرامة بالتوحيد والقيم ومكارم الأخلاق، يخلصها من شريعة الغاب بشرعة الفذة ربّ الأرباب، ويستنقذها ترسم بعزمة العروج من

ساهرة الردى والهمود إلى علياء الحياةعل التي المنهج للبرية فريضة، تؤدي فيه يضة الاستخلاف بالهدى والعلم والاعمار.

لقد طلع وجه محمد في اعتكار تلك الظلمات، وصروف تلك المتاهات، ورزايا ذلك الليل الأيهم، وهل تبزغ الشمس إلاّ من بين أحناء الظلام؟،

وهل ثمة أشهى من نورها إلى قلوب المدلجين؟

وشاءت حكمة الله أن يأفل نور الوحي عن وجه محمد أمداً ثقيلاً على قلبه الذي وجد في جنبه أنسه وهناءه، فأخذته البرحاء، وتملكه الهم، ودب الهمس من حوله، لا بل علا الصياح، ان قد غادر محمداً شيطانه، وأن الله الذي يتهمه بأنه ارسله قد هجره وقلاه، حتى لقد جاءته امرأة مشركة وصرخت في وجهه:

(ما أرى شيطانك إلاّ ودّعك).

وشاء الله أن يري الذين حسبوا كلامه الذي فاه به على لسان رسوله ـ صنعة محمد، ونفثات صدره، وعطاء بيانه ـ أن محمداً ليس إلاّ وسيلة البلاغ بما يوحي، ولو كان الذي جاء به تقولاته لأكثر منه، ولاتى به أنى يشاء، ولم يقع في حبال تلك اللوعة التي اعتصرته بين أطواقها، واججت لظى المرارة في نفسه، ولم يغد كأنه في سكرة من الموت لفراقه وحي الله، حتى قيل تصويراً لوجده المرير، إنه ليوشك أن يرتقي هامة جبل فيلقي بنفسه من عليها. حتى إذا اصابت الحكمة عين الغاية من احتباس

وحيها عن أمينها، أراحت فؤاده الظامئ وشعوره الأسيف، وعاد إليه رفيقة الأمين ليجد في مناجاته بهجته ودعته، حيث انتشله من لجج الغموم التي أمسى رهينة طغيانها، وفاح طيبه على قلبه:

(والضحى، والليل إذا سجى، ما ودّعك ربّك وما قلى).

من بعد ذلك جاءه الأمر العظيم:

(**يا أيها المدثّر. قم فأنذر**)، ومن اليوم غدا محمد الداعية إلى هدى ربه، والدليل إلى ما يبتغيه لأهل الأرض من سداد المسير، والرائد الذي يدلّ الناس على مواطن الخير والصواب، ويجتالهم عن مهاوي الزيغ والتباب. ودبّ في نفسه الخوف من إعراض الناس وكفرانهم بما يدعوهم إليه، وهم من اشربوا الغي، وامتزج بدمائهم، وماتت قلوبهم وضمائرهم تحت فادح ثقله، فهل تراهم إذا ارتفع نداؤه بينهم (**قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا**) سيطربون بندائه، ويسكرون بسحر صهبائه، ويجيبونه بالرضا والحبور (لبيك إنا هدنا إلى الله، وسبحان ربّنا عمّا ألحقنا به من شركاء، وما اتبعنا من دون هديه من أهواء، فهذه قلوبنا بين يديك خذها إلى حيث تشاء في معارج هداك لتعرف معنى الحياة، وتبلغ أرفع الغايات؟).

أم ستكفهر وجوههم، ويرفعون عقائر الاستهزاء، ويضعون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، ويندفعون بنار الحسد والغيرة والعناد،

يسومونه الخسف، ويبسطون إليه يد المساءة، لا يألونه صدّاً وإيلاماً وتسفيهاً.

الكأس الروية والظامئون

ودبّ سحر الإسلام في حنايا القلوب الصادية إلى الحق، وانساب نميره في النفوس المتعطشة إلى الهدى، فقد ارهقها الظلام، وهدها الظمأ الخانق، فهي تهفو إلى ما يطفئ غُلّتها، ويميت لوعتها، فهبت تحتضن الرشاد، وتسرح في آفاقه، وتزهق بسلطان اشراقه ظلمات تيهها وضياعها المقيت، فلله هو ما أعظم ما يريده لهذا الإنسان. إن مرامه له أن يصير انساناً جديداً، يصبه في مصهر الإيمان، ويعجنه بماء الحكمة، فيجعله خلقاً سوياً، يجري في عروقه مع دمه سلامة الحجى، وصحو الضمير، وشروق النفس، وطهارة المشاعر، ويقظة القلب، وسمو الاحساس.

هذا زيد بن حارثة الذي تبناه النبي بعد ما وهبته إياه زوجه خديجة فعاش عنده في ظل البر والإحسان والأبوة الصادقة، فلم يعد يشعر أن له أباً قد فرقت الأيام بينه وبينه، وتدفقت في اعطافه أنوار الإيمان، وهيمن الإسلام على فؤاده، وجاء أبوه وقد هام لفقده أيما هيام، وحنّ إليه حنين الوالهات، ووجد ببعده عنه جسيم الخطب، ألفاه ولم يكن يحسب أنه سيلقاه ويبصر وجهه من جديد، عثر عليه وقد أزهر في دنياه مصباح الهدى، ولقد أنبأه الرسول أنه يأذن له بالذهاب مع أبيه إن اختاره عليه، فمدّ الأب يده إلى يد ابنه وأمله أن تتشابكا لينطلقا معاً إلى بلادهما، ولكنه وجد يده قد امتدت إليها يد زيد فزحزحتها عنه برفق، حيث بهت أبوه وانتفض كأنما لسعته أفعى، والحف الأب في تكليمه بشأن الرجوع،

ممعناً في الحديث عن شوقه وشوق أمه إليه، وعن تحمله المشاق الجسام في غيبته وفي سعيه لوجدانه، فلم لا يصطحب أباه آيباً وقد أذن له من تبناه في ذلك إن أحبه؟

وبعد لأي وجهد من الحاح أبيه، قالها زيد موصداً بها باب المراء:

(إني رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً).

نعم لقد وجد الهدى والخلق الرفيع، ودخل الرحاب السنية الطافحة بالخير والرفاه، واستلذ أبوّة الرسالة فأنسته أبوّة النسب.

اغرودة الخلود

في مرابع اللطف غنى هزار السماء، وفي رياض العناية ولى عندليب الخير يشدو، ويتفتق عن أبهج ما في معين الابداع من تغريده، وراحت السماء تكلم الأرض، وتفيض في سمعها ما يشنّفها ولو صيغت من حجر أصمّ. وتسكب في قلبها من سحر الجلال ما يسمو به إلى دنيا الخشوع إلاّ أن يهوي به خبثه ورينه إلى مهاوي العناد. وتفجر في لبّها عيون الحق فتصرخ من ظمأ الأمس القاتل، فتحتضنها، وتروح تنهل منها ما يهوي بصداها إلى قراره السحيق، ويرتفع بها إلى علياء الدعة والارتياح، إلاّ أن تتأبى علواً وظلماً، فتظل بهما في طوق الحرمان حتى تذوي.

وتلك قريش حجارة جامسة وطباع ناكسة، فاض في أرجائها أريج القرآن، وطبق أنحاءها عبيره، فاهتزت، وطربت، وتجاذبتها أعاصير النشوة، وتقاذفتها أمواج الانفعال، فكان من كل هذا عزم في أحنائها جاءه الحسد والغيرة فأضرما فيه نارهما، ثم دفعا به في وجه محمد، وقد كان خليقاً لولاهما أن يعصف بكل بشاعة الغلظة، ودمامة الطبع، وبشاعة الخبث، وادران البهيمية، ويفك أسر النفوس في أصفاد الانتكاس، ويعتق القلوب من ربق الهبوط، فيندفع الانسان فطرة بيضاء ناصعة ملهوفة إلى الحب والجمال، تسمع فتطرب، وتذهب في رحاب الأنس كل مذهب، وتذوب في حق مبين كله سحر وبهاء، وبهجة واضواء، فأبت القلوب

في قريش إذ أحبت أن تهيم، او إذ هامت أن تطير بأجنحة الأشواق خلف من تهوى، وشاءت أن يأسرها سلطان الغرام، وتكبلها بالأغلال اجناد التبريح، ويتسعر في أرجائها ضرام الهيام، ثم تظل ترنو إلى من فعل بها كل ذلك، وهو يدعوها إليه، ويفتح لها ذراعين حانيتين عن صدر شفوق، فلا تهمّ أن تخطو، وتظل مع قيدها الذي يشدها إلى الثرى، فتدفن رأسها بين آفاته، ولو شاءت أن تفعل لكان القيد عزماً لا ردماً، لكنها أبت ألاّ أن تجيب داعي دائها المردي، وتكفن نفسها بأوهاقه، وإذ تعرف قريش هذا وترى ما للقرآن من سلطانه الآسر، فهو مستثار عنفوان الحيرة، ومسعّر نار العُجْب والعجب ـ تروح تدور في أنحاء البيت العتيق حيث العندليب يصدح في ركن منه تدعّ الناس عنه، وتزجرهم عن غشيانه، وتصيح بهم: أن ضعوا الوَقْر في الآذان كي لا تسمع، فإنها إن سمعت دهى القلب عنها داء عضال لا يريم.

وها هي تدنو من فيض البهاء، لتجلو بسحر بلاغته الفذ غياهب الاتراح، ولا ترضى أن تشفع الدنو بخطوة واحدة قد فصلت بينها وبين أن تسبح في غماره.

فهذا الليل قد أغدف، والبس الأرض برد سواده، وشملها بسلطان الظلام، فنآى عن الأنظار بنور الأبصار، وقد آن لثلاثة من المشركين المدلّهين الهائمين بالفصاحة أن يسعوا على جمر الترقب، وعصاب التوفز، ومرارة الانفعال، نحو ذاك المشتهى البلاغي الغلاّب، لتتشنف

أسماعهم بأعذب اللحون، ثم يؤوبوا ليلتقوا، ويتلاوموا، ويعيب كل معجب صاحبه على اعجابه، ثم ليعودوا في الليلة التالية إلى ما نهى بعضهم بعضاً عنه، وهكذا هو دأبهم ثلاثاً حتى أفحمتهم حجة الملام فيما بينهم.

وهذا عتبة يدنو من فم السماء الناطق بندائها، فلا ينآى عنه إلاّ بقدر أن لا يماسه، ويروح يسرح في عالم غريب من الحيرة والذهول، ويبقى كيانه مهدوداً بقهر الكلام الغلاب، فلو لا أن يقطع بالاسترحام السبيل على سيب الابداع العجيب لقضى من تلكم الحيرة وذلكم الذهول، ويؤوب الغوي بعدها إلى داجية عماه، ويظل مشدوداً إلى غِربيب تيهه، فلا يعشو إلى هذا الضياء الذي كاد أن يخطف ناظريه، ولا يعرج على هذه النعمة السابغة والهناء الغامر في مروج الإيمان الزاهرة. هكذا شاءت قريش أن تفعل، يذهب بها الاعجاز القهّار في نداء الحق إلى الاستيقان فلا تذعن، ويوشك نوره أن يصعق عماها فلا تأذن له في ذلك، وإنها لتود أن تخرق الأرض فتغيب في حشاها، حتى لا يؤرقها بهاؤه، ولا يسعّرها علاؤه.

ألم تر إلى جمعها في البيت الحرام حول الجلال الباهر للخطاب الساحر، كيف راح يتهادى طرباً، ويتثنى سكراً، وقد راحت آي القرآن من فم المصطفى تصب في أعماقه من شموخ الكلم نمير التطريب، وتفجّر في أحشائه للحيرة سَورة اللهيب، وتروح تسعى به إلى آفاق

تعالت عن أن يكون قد قاربها يوماً، فهو لما قد بلغه من سامق المحل وعظيم المكان، مهزوز من جذله، دهش من منزله، كأنه عن وعيه في منآى بعيد، يركض مجذوباً خلف النغم الآسر، فإذا كان على محمد عند آية السجدة أن يخر ساجداً لله هوى الجمع الذائب في ذهوله البلاغي صانعاً ما صنع بغيضه، حتى إذا تقشعت عنه سحائب ما هو فيه، وانكشفت كثافات حيرته، عاد إلى التراب، بل إلى ذلك الحضيض المهين تحته.

هكذا كان القرآن، وسيبقى ما تعاقبت الدهور والأزمان... الكلمة القهارة والنداء الحبيب، والشدو الحالم والنغم المهيب، ضمها إهاب حكمة بالغة، وحكم رافع، وهدي عظيم، ففيه من الكلام الأثير ما يفوق فعل النفوذ فيه فعل النور والعبير، وفيه دلالة أسمى لأنه من الحكيم الخبير، وفيه علم بالحياة لأنه حديث من برأها، ولديه خبر عن الكون لأنه ممن خلق السموات والأرض، وفيه هتك ستر المجهول لأنه ممن لا يعرف الاستار، وفيه من أنباء من راحوا ومن يأتون ما هو الحق والصدق لأنه ممن لا يعتوره طارف ولا تليد، فالدنيا كلها عنده قبضة كف، وفيه سداد أرفع واستقامة شامخة، فلو كان من غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

حليم بني غفار

عرفته غفار من بينها رجلاً نابهاً، حازماً، عظيم النفس، رفيع الهمة، ثاقب الرأي، لما فتح عينيه على ما عليه قومه من عبادة الحجارة حتى أدرك غيهم وضلالتهم، وعرف تيههم وسفاهتهم، وقد ظاهر العزيمة في ادراكه هذا ما حلّ بـ(مناة) صنم القبيلة الذي أملت عليه عادة أهله أن يعبده، ويقدم له الهدايا، وينحر له النحور، فقد جاءه بلبن وقربه منه فلم يشرب منه شيئاً، فظن أن الهه خجل منه، فتركه عنده ومضى، فلم يبعد كثيراً حتى رأى ثعلباً جاء إلى اللبن فشربه، ثم لم يكتف بأن شرب لبن مناة، بل عمد إليها فبال عليها، ولم يعجب جندب، فهو من قبل كان هو يدينها بالحقارة والضعة والهوان، ويضلّل في نفسه حلوم قومه الذين عبدوها ودانوا لها بالتعظيم. وأطرق حيناً ثم رفع رأسه وانطلق نحو ربه المزعوم فوقف ازاءه، وضحك في وجهه ساخراً، ثم أنشأ يقول:

اربٌ يبول الثعلبان برأسه   لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان يمنع نفسه   ولا خير في ربّ نأته المطالبُ
برئت من الأصنام فالكل باطل   وآمنت بالله الذي هو غالبُ

وهجرها دون قومه، ومضى يتعبد الله، ويدين له بالربوبية وحده لا يشرك به شيئاً، حتى إنه ليقوم يدعو في الهاجرة الثقيلة، فتأخذ منه مأخذها فيخر كأنه خفا، وحين يُسأل بعد ذلك أين كنت تتوجه في دعائك؟، يجيب حيث وجهني ربي.

وإنه ليقول:

(صليت قبل مبعث النبي بسنين)

وبينا هو في بعض شأنه إذ مرّ عليه رجل من أهل مكة سمع من نبأ محمد ما سمع، وكان يعرف تأله أبي ذر وعزوفه عن ضلالة قومه، فطرق سمعه بقوله:

(يا أبا ذر، إن رجلاً بمكة يقول مثلما تقول، لا إله إلاّ الله، ويزعم أنه نبي).

فارتعدت فرائص الرجل البصير، وخفق قلبه الكبير، وهب كأنما عصف فيه عاصف، وانطلق إلى أخيه قائلاً له:

(إذهب فأتني بخبر هذا الرجل، وبما تسمع منه).

واسرع أخوه قاصداً مكة، حتى إذا بلغها راح يسأل فيها عن ذلك المقصود فدُلّ عليه، وسمع بعض حديثه، فإذا ما قرّ في نفسه أن قد نفّذ ما أوصاه به أخوه، عاد إليه، وقص عليه من أمره ما علمه، فلم يطفئ غلته، وقال له يغمره التأثر ويطفح منه الانفعال:

(ما شفيتني).

وركب هو صوبه مدفوعاً بقوة الخير المتيقظ حبه في نفسه، فتراها تدعّه دعّاً إلى ربوعه ومروجه الباسمة، لا بل أمست كل دوافعه ونوازعه، فهو ينطلق بها طائعاً مختاراً إلى رحاب الحق والفضيلة.

ولاحت له من بعيد مكة، فكأنما انشق صدره، وفاضت فيه سيول من الاحساس الغريب الذي يخالطه أول مرة، وخيال رجل النبوة لم يعتم ماثلاً أمامه كما ترسمه له نفسه لا يبارحه كظله، وكلما دنا من أم القرى خطوة دنا بها باعاً من الاضطراب الذي لا يعرف له مستثاراً ولا مصدراً.

وبعد ساعة كان عند البيت الحرام، فلم يحر ثمة دعاء، ولم يبد نداء، ولم يدر أين يلتجئ؟، واي بيت يكنه إذا ما طال به مدى بحثه عن غايته، وهو لا يعرف أحداً يُقريه، أو يدله على ما أتى إليه؟

وآثر أن لا يضمّه مأوى، وأن لا يسأل أحداً، وأن يدع نفسه تدور في ساحة مكة حتى يرى ضالته، فإن وجده صادقاً لاذ بكنفه، وإن بدا له كذبه عاد أدراجه وقرّ على ما هو عليه بالأمس من دينه. وإنه للأصيل ولى يسحب أذياله الصفر عن وجه الأرض، وينثر على رأسها بقية ما في وفاضه من أزاهير بسماته، ويودعها خجلاً محمّر الجبين لفراقها، فقد حان له أن يأفل، ويأذن لطلائع الدجى أن تستبيح الحمى وتفتح الحصون.

وها هو أبو ذر لم يفز بعد بمبتغاه، وسيجنه الليل، ولابدّ له من كنف يلوذ به، فمكوثه هكذا وهو الغريب أمر مريب.

ولم يطل تفكيره، فقد اهتدى إلى بيت الله دون بيوت الناس، فطربت نفسه، واطمأنّ قلبه، وحين دخله غرقت روحه في فيض ساحر من

الخشوع، وراح يطوف بالكعبة ويناجي ربّه، ثمّ أوى إلى ركن من البيت العتيق فجلس عنده يقضي ليله بجواره، واستقرّ ثمة يرقب الداخلين والخارجين حتى كاد يخلو من زائريه، وها هنا كان علي كعادته يختم يومه بطوافه ببيت ربّه، وحين همّ بالخروج لفت نظره ذلك الرجل القابع في إحدى زواياه فانطلقاليه راجيا، وهو يأمل أن يصيب فيه إحدى اثنتين، دلالة غريب حيران، أو غوث مضطر لهيف.

وحين دنا منه علي كان بينه وبينه حوار سريع كلا ولا:

(من الرجل؟)

(رجل من غفار).

(قم إلى منزلك).

وسارا يداً بيد إلى البيت الذي سيشرع الله منه باب الخير في وجهه، وحين قرّ قراره طلب الكرى فلم يجده، وظلّ رامقاً لم تغمض له عين سحابة ليله فقد شغلته أفكاره عن النوم، ولما قارب الهزيع الأخير أن يرحل سكن أبوذر إلى السبات، حتى إذا نشر الصباح لواءه خرج إلى البيت يطوف به، ويتأمل في الوجوه عله يرى من بينها وجه الرسول. ومضى نهاره الثاني ولم يفلح بمراده، فأوى إلى مكانه الذي أمه البارحة في بيت الله، وعلى شأنه كان علي قد دخله وطاف به فوجد ضيفه البارحة في مكانه فعجب لأمره، واسرع إليه وقال له مستفهماً:

(أما آن للرجل أن يعرف منزله؟).

وبات ليلته الثانية عند علي ثم خرج، وانصرم نهاره الثالث، وعاد مشهد علي معه على هيئته في أمس وأول من أمس، وبعد أن هده الأعياء، وارهقته الحيرة، وأجهده البحث أقبل على علي مصمماً على أن يبوح له بشأنه وقدومه لمعرفة الرجل الذي جاء بالنبوة في هذه المدينة وسماع حديثه:

إني بلغني خروج (هذا الرجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليأتيني بخبره، وبما سمع منه، فلم يأتني بما يشفيني من حديثه، فجئت بنفسي لألقاه).

فهش علي له، ومنّاه الخير، ووعده بلوغ مرتجاه قائلاً:

(إني غاد فاتبع أثري، فإني إن رأيت ما أخاف عليك اعتللت بالقيام كأني أهريق الماء فاتيك، وإن لم ار أحداً فاتبع أثري حتى تدخل حيث أدخل).

وفعل علي فلم يجد من عيون قريش من قام رقيباً على دار الأرقم ليتعرف الآمّين والمغادرين، فدلف علي وعلى أثره كان أبوذر حتى دخلا الدار، فإذا به وجهاً لوجه أمام من أنهك قلبه وبدنه للفوز بلقياه، والتعرف على أمره، ولم يجد نفسه أمام الرجل الذي صورته له أوهامه، رجلاً ممن ألفهم وعاش بينهم، بل امام رجل هو من الناس لكنه بائن عنهم وهو منهم بلحمه وعظمه، غير أنه سواهم في روحه، رجل تشع الفضيلة من أنحائه، ويعبق الشموخ من عليائه، وتفوح الحكمة من

كلماته ونظراته، فآمن به إيماناً سما به اليقين، وارتفع به الصدق، وتعالى به الاخلاص، وبعد أن عرف النبي فيه ذلك، واطمأنّ إلى اسلامه، رغب إليه أن لا يمكث في مكة ملياً، وأن يرجع إلى قومه داعية إلى الدين الذي آمن به، لكنه أبى أن يترك مكة دون أن يعلن فيها بين الملأ اسلامه وتصديقه، وأبان لنبيه ما عزم عليه:

(والله لا أرجع حتى اصرخ بالإسلام في هذا المسجد).

غير أن النبي اشفق عليه من سطوة التائهين، وبأس العتاة الغلاظ:

(إني أخاف عليك أن تقتل).

(لابدّ منه وان قتلت).

وسكت عنه المصطفى، ووجد هو في الصمت الاقرار لما هو مقدم عليه، وهبّ مسرعاً نحو المسجد، وتوسط حلقات القوم فيه، ورفع عقيرته فيهم بنداء جاهر بالإيمان، ذاكراً الله وحده، قارئاً للقرآن، فتصايحوا من كل جانب، وائتلفت صرخاتهم، فاندفعت صرخة واحدة:

(صبأ الرجل. صبأ الرجل).

وانقضوا عليه انقضاض الباشق، وأمسكوا به فجلدوا به الأرض، ثم أمعنوا فيه ضرباً وايلاماً، وكادوا أن يجهزوا عليه، لولا أن قام فيهم العباس مناشدا إياهم الرفق به، محذراً غب ما يقترفونه في جنب هذا الرجل:

(قتلتم الرجل يا معشر قريش، انه من غفار، وطريقكم على غفار، تريدون أن يقطع الطريق؟).

فسمعوا كلامه وتركو اباذر، حتى إذا أفاق من غشيته تناهض فلم يستطع، ووجد نفسه مهيضاً تشده آلامه إلى الأرض، وتنزف الدماء من جوانبه.

واستحيى أن يظل مطروحا في باحة المسجد فيبصره على حاله كل وارد، فتحامل على القيام، وأجهد نفسه على المسير، حتى ورد ماء زمزم فاغتسل وشرب، ومضى إلى رسوله يخبره بما صار له، ووعده أن يفعل في غد مثل ما فعل اليوم، وسكت عنه النبي مرة أخرى، وكأنه أراد في ذلك أن يري قريشاً أن من بين من آمن به رجالاً أدركوا صدقه وسداد ما يدعو إليه، فآمنوا واشربوا مع إيمانهم رسوخاً صادقا فيه، وثباتاً أكيداً عليه، ووفاء شامخاً له، فهم لا يحفلون بالزعازع، ولا يخشون النوازل.

وقد أراد الرسول أن يري الخائفين من أتباعه أن لا بدّ للمؤمن الذي صدق في إيمانه أن يكون شجاعاً، جلداً، لا ترهبه الشدائد، ولا تفتنه الخطوب، ولا تذهب بإيمانه الرزايا، فهي حليفه في طريقه الطويل العسير حتى يمكن الزمام، ويسود الأرض حكم الله. ووقف الضرغام أمام قريش موقفه بالأمس، ووجد منهم ماوجده فيه، وكان العباس أيضاً هو اليد التي فكت عنه قبضتهم الكاسرة:

(ويلكم يا معشر، قريش أتقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم في غفار؟).

فكعوا عنه، وتركوه ينطلق إلى نبيه جذلان محبورا بأدائه وعنائه:

(لقد صرخت بها ثانية في قريش).

ووجد أبوذر نفسه هذه أمام أمر الرسول ونبوءته:

(يا أباذر ارجع إلى قومك، فإن ابن عم لك مات وترك مالاً، فخذه وانتفع به، واستعن به على الدعوة إلى ما دخلت فيه).

ولم يكن أمامه إلاّ الاستسلام لأمر الرسول، وأسرع إلى قومه يدعوهم إلى دين الله، فآمنوا به إلاّ قليلاً منهم، وكان مما حداهم على الإيمان برسالة الله عن قوله ـ صدقه الذي عهدوه فيه، ورجاحة رأيه، وحصافة لبه. ولم ينس أبوذر ما فعلته به قريش، وموقفها البغيض من الإسلام، فمضى إلى عسفان، وأقام بها ليقطع على قريش طريق تجارتها، ارباكاً لها، وفتّاً في عضدها، وولى يكر على قوافلها، ويغنم ما فيها ليعين به من اسلم من قومه، وأما من لم يسلم فلا ينال منه إلاّ أن يقول (لا إله إلاّ الله). ولم يزل هذا دأبه حتى هاجر النبي إلى يثرب، فهبّ بقومه لاستقباله، والتقى به عندها.

ريحانة الهدى

من كان يظن أنه يستطيع أن يطوي الدنيا باقتدار الروح الخاشعة التي تنطلق إلى حضائر القدس في رحاب الملكوت الأعلى، ترتشف من رحيق السكينة أعذب الكؤوس، وتطوف سكرى من فرط نشوتها في سبحات الوصال الأسمى؟.

من كان يحلم أن في وسعه أن يناجي الروح الأعظم الذي يلف الكون من خلال تيار روحي يثور، ورهبة أخّاذة تعلو، فانمياث في برد سحر عجيب، فجوبة في أفق غريب، فتسامٍ وصعدٌ لو أنّ لحظة واحدة منهما تفدى بملء الأرض ذهباً ما فديت؟ فلو كان لعارج صدوق بأعظم اقتدار الخشوع واشد عزم الضراعة أن يبلغ الأفق الأبهى لعز عليه أن يؤوب عنه، فيدع جسمه في الأرض لأنوائها، ويأنس بروحه الرفراف في عليائها، وتكون وجهته المثلى (بل الرفيق الأعلى).

في الطليعة من مواهب النور التي ملأت الأرض بألطافها كانت الصلاة، وكان تشريعها الميمون على أكثر الأقوال في رحلة الاسراء والمعراج، وثمة من يرى أن هذا هو الأقرب بمناسبات الحكم والموضوع كما يقولون، فما دامت الصلاة هي (معراج المؤمن) كما ورد على لسان الرسول وأهل بيته الكرام، فإن محلها الفريد الذي أطلت منه على عالم التكليف هو عالم العروج النبوي، في أعظم تجربة يخوضها

مخلوق انساني مقدس في رحاب الملكوت، في أرقى درجات القرب من المجد الالهي حيث: **(دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى)**.

كانت حكمة الصلاة أروع الحكم للقلب والروح والواقع وأبلغها، فحين يتفجر حشا الليل بنور الفجر غضاً ندياً، يهب انسان الإسلام دفاقاً بالعزم، ليبدأ يومه بذكر الله في صلاة خاشعة، تتسامى به في سبحات الاشراق، فيكتسب منها طاقة الورع يستدفع بها ظلمات الدنيا وغواياتها، وينطلق لبناء الحياة، حتى إذا أجهده التعب، وحانت ظهيرة النهار، وكان له أن يستريح وقد غمره مسيره في الأرض ببريق السفاسف والبهارج وسواها من علل الانتكاس ـ التجأ إلى الله كرة أخرى ليذيب في نور الخضوع له وصحوة الانشداد به ـ غوائل ما دهمته به معايشة الواقع من مغرياتها، وما أعلق قلبه من آفاتها، وألمّ بصفاء نفسه من غبشها، ليتزود من جديد زاد الخشية حصانة من داء الانحراف، وعصمة من ورطة الزلل، ثم ينصبّ في شأنه بقلب عامر بإيمانه، ونفس مشرقة مقاها، ليهب فريضة الاعمار حقها من النشاط المستمسك بذمام الصدق والاعتصام.

فإذا ما ذبل اليوم، وبهت نهاره، وطفّلت شمسه للأفول، ثم أوت إلى مخدعها، كان خليقاً أن يريح جسمه بالسكون إلى الدعة، وشعوره بالسكون إلى الله، فيمضي يناجيه بقلبه وضميره، طالباً لحسناته الزيادة ولخطيئاته الغفران، حامداً إياه على فضله، شاكراً له نعمته وعونه، مختتماً بذاك يومه الحافل بالصراع، فهو سحابة يومه لا يفتأ يذكر الله، ويقدسه،

ويركن إلى ظلاله، ويَرِدُ معين عطفه، مبتغياً أن يظل الرباط بينهما وثيقاً، والوشائج موصولة، فلا يزيغ، ولا يطغى، ولا يتيه، ولا يبطر، يمشي وقد أزهر قلبه بنور التقوى، سوياً على منار ساطع، في طريق لاحب مشرق.

إن الصلاة لتهبه وقد وعاها وذاب في فلسفتها منتهى الانعام حين تكون سبيله إلى أن يبصر ذاته، وجسيم خطرها، وجليل منزلتها عند بارئها، وتريه كريم الغاية التي خلقه لها من أناط به خلافته، وبناء صرح الخير في أرضه، وتسير به قدماً إلى نيل المبتغى، فتخضد الشوك عن طريقه، وتزيل عنه مواطن العثار، وتفرشه بأمن الروح وسلامة القلب، وتميت فيه مكامن الفحشاء والمنكر، وتحيي فيه مباعث المعروف والاحسان، وتوقظ مشاعر البر والعدل والرحمة.

وهي قبل ذلك تكشف عن بصيرته غواشي الذنوب واسداف الخطايا، فيكون له أن يبصر الحقيقة، ويدرك الخير من الشر، والصواب من الخطل، وأن يدرك أن له غاية عظيمة، وأن عليه أن يسعى إليها بمضاء وعزيمة، ثم تهبه من منهلها المترع الفياض صلابة الإرادة، والعمق والانضباط، ليسير بها صلباً، قوياً، ثابت الخطى، لا يزد، ولا يميل عن المحجة الناصعة والمسار السديد.

وهي التي تسكب فيه روحها فترغم فيه أنف الهلع والطيش، وتضرع لديه خد الضعة والهوان، والقلق، والعصاب، والقنوط. وهي بعد هذا كله رياضة لبدنه، وإيقاظ لجوارحه.

وهي التي تصب الأمة التي اجتمعت عليها، وأدت إليها حقها، في أعظم معنى للاخاء والألفة والمساواة، حين يقوم بنوها كلهم إلى عبادة رب واحد بشعيرة واحدة، وقد ذابت لديهم في دنياهم كل ما فرقتهم به موائز الأرض، بين سَوقَة وأمير، وغني وفقير، وكبير وصغير، وشريف وحقير.

وهي لا تهب عطاءها من عاشها عبأ ثقيلاً، ولا يأتيها إلاّ كارهاً كسولاً، ولا يؤديها إلاّ وهو في غمرة أفكاره ونوازعه، وإن لهج بها لسانه، وتحركت بأفعالها أركانه، لكنها تهب خير العطاء من عاشها فكراً وشعوراً، وذاب فيها لتذوب فيه بأفضالها.

أتعلم أنك حين تنحو خاشعاً بوجهك في صلاتك شطر ربك، وتبتهل إليه، وتتضرع بين يديه ـ تطوي أبعاداً عظيمة، وترقى آفاقاً هائلة، وتتسامى حتى تقف في حضرة زاهية ومقام قدسي، تجد فيهما نفسك تسبح في غمرات الأنوار، وتذوب في كثافات المعاني السامية، فتحس بالحبور الأعلى يغمر دنياك، ويطير بك في أرجائه العجيبة؟

أتعلم إنك حين تقف خاشعاً بين يدي ربك تعبده وتمجده ـ تصبح قطعة من هذا الكون المسدد في هذا الحين القصير، فلو أنك مشيت على هذا الناموس الذي انجذبت به نفسك إلى ربها فوقفت ضارعة أمامه، لكنت تلك القطعة ما مرت بك الأيام، مسدداً تمشي سوياً، لا يعتريك الالتواء؟.

ألا تعلم أنك في صلاتك تقف في البداية من دينك، وعلى حالها يكون ما يتلوها منه، وأنك منها تبدأ المسير، فإن جعلتها معراجاً كنت أصدق المؤمنين العابدين وأسعدهم، وإن جعلتها عادة بليدة قعدت بك مع الجامدين المقلدين الذين لا يزدادون من حركاتهم الفارغة إلاّ جموداً؟.

لقد كانت الصلاة بما أوتيت من حرمة ودور ـ عمود الهدى وسنامه، فلا دين بغير صلاة، وهي بما أريد منها من جليل الهدف، وطهارة الفعل، وعصمة الخطى، كانت دليل الصدق فيهما، فلا صلاة بغير شاهد عليها منهما.

ما أعذب أن يعيش المسلم الحقيقة أحياناً في يومه، ليبصر جسده وروحه شيئين منفصلين، روحاً تتعالى، وتراباً يتطامن، ولا جَرَم أن يذوب الصخر لو رقى هذا المرتقى، فكيف بما في القلب من شوب الغلظة، وما في النفس من داء الخور وعلة الحيدان؟.

في حنايا الكتمان

بدأ الرسول طريقه في أكناف الحيطة والكتمان، وأكنان التستر والخفية، فمثله وقد كفر بالآلهة المعبودة والقيم المشهودة، وسفّه أحلام الأكابر، وضلّل أفكار الشيوخ، وعاب على الناس سنّة الآباء ونهج الأجداد، وصاح بهم أن الأرباب زيف، وأن الأصنام سخف، وأن لا إله إلاّ من بدأ خلق الكون، وهيمن عليه، وسيره بحكمته وتدبيره، وأن لا نهج إلاّ نهجه، ولا سبيل إلاّ سبيله ـ مثله وقد فعل مثل هذا حري بأن تعصف فيه نخوة الباطل، وحمية الجاهلية، وبأو الأكابر، وتجبر السادة، وهو بعد وليد في مهده، ولم يمل إليه إلاّ من ذاق ويل الاستعباد، وضيم الاسترقاق، مندفعاً بشوقه للعيش في دنيا التحرر والانعتاق، وأنى للغاشم المتجبر المستعبد أن يخضع، ويستكين، ويطامن من غلواء نزقانه، ويذل مستخذياً لله، ويؤمن به رباً لا رب له سواه؟.

هذه دار ابن أبي الأرقم مستودع النور، ومحط رحال الورّاد، وتلك الشعاب والاباطح الموحشة، قد سكنتها زمر الإيمان، حيث وجدت لديها ما تبتغي من الفرصة الوادعة، لتؤدي فيها إلى الله حقه، وتعي ما قد أراده، وتتدبر ما جاءها منه، ثم تنطلق من وعيها وتدبّرها في سوح الأداء كافراس الرهان. لقد خشي النبي بطشة كل مكابر في عتوه، وفتكة كل مغال في تجبره، فيطفئ هذه الشعل الوليدة، ليموت اتباع الحق وناصروه. لقد دعاهم إلى أن لا يراهم الناس وقد لبسوا مسوح الإسلام، واتبعوا

محمداً، فتتفجر عليهم حمم الضلالة تذيقهم مرارة الهول والفناء، إلاّ هو فقد آثر أن ينفرد بإيذاء السفهاء، فهو على بينة من ربه، وموعدة وعدها إياه بنصره، إنه يتجاهر أمام الناس بدعوته وصلاته ليسكب في نفوسهم روعة مشهده وهو يعبد الله وحده، ويردد أنغام القرآن على السانح والبارح، إنه يؤمّ الكعبة وخلفه صفيه علي وزوجه خديجة، ليروحوا يمجدون الله وحده بين حشد الأرباب والآلهة وعبّادها، لا يعبأون بالسخرية والاستهزاء، ولا يحفلون بالذم والتسفيه. ولقد كان يواسي اتباعه فيخرج لاحقاً بهم في العراء حيث لا سفيه ينغص عليهم لذيذ العيش في ظل الإسلام، ويكدر صفو سكونهم إلى نعيم تعاليمه، فيبهجون في تلك القفار بزينة روض الإيمان، ويزدهون بأزاهيره، وينهلون من معينه. بينا كان محمد وربيب قلبه ذات يوم يصليان لربهما مر بهما أبو طالب كعادته في حياطة النبي ـ يتفقدهما، فاهتز من أنسه بحالهما يصليان معاً، وبابنه الرضي الذي أكرمه الله على صغره بنعمة الهداية، وثار فيه الشوق لسؤال ابنه عما هو عليه، لتستبين له حال وعيه به ولزومه له، ووجّه كلامه إليه كالممتحن له:

(ما هذا الدين الذي أنت عليه؟)

(يا أبت آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته).

وابتسم الأب لولده بسمة طافحة وقد تغشاه السرور، وعمت أرجاءه البهجة، فأمسك به، ومسح على ظهره، والقاها على مسمعه بحرارة وصرامة:

(أما إنه لا يدعونا إلاّ إلى خير فألزمه).

وليس نكراً أن نرى بناظرة البصيرة حينما تنكشف عنها سدف الشبهات الغشوم التي تدجّت ظلماتها حول شمس النبي المصطفى من فورة الحقد والحسد، إن الذي وجد في ظلّ عمه بالأمس اغداق البر، وقد جعلته السماء دليلاً إلى أعظم النعم، وهادياً إلى غاية الخير، يدرك أن من العزيز عليه إلاّ يحبو عمه الكافل الشفيق بمنتهى الخير والبر، فهو أبوه بعد أبيه، والعارف به الذي كان يبشر الناس بيومه، ويعدهم ظهور شأنه، ويكرمه لأجله، ويجد منه الشيء العجاب فيه، فإذا ما سمع الأب نداء السماء على لسان ابنه، خشعت جوارحه، واقشعر قلبه لبلوغ أمره، وفاحت اعطافه من ذاك بالبشر والحبور، وسكنت نفسه إلى الهدى، ولم تجد في ذلك عناء، وهي التي لم تستغلقها أدواء الشرك، ولم تنشب فيها مخالبه، وهو فوق ذلك الرجل الحليم المتدبر، ومن كان قومه يقتدون بخلاله السامية، ويستنيرون بهدي أفعاله، فليس عجباً أن ينطلق في دنيا استقامته المشهودة وصلاحه المبين، ليكمل دور الرشاد، ويرقى بصلاحه إلى مستقره في أحضان دين الله الحالمة.

ولو كان قلب عم النبي صخراً لا يرق للخير، وحجارة لا تلين للهدى، فما يمنع ابنه وغذيّ شفقته ورأفته، وطالب هداه وصلاحه ـ أن يسأل وهو مستجاب الدعوة ـ ربه له تسبيب الهداية، وفتح باب النور أمام من أبصر فيه خلائق الأكرمين، وسمات الطيبين، وفعال المهتدين، فلا تتجهم السماء في وجه دعائه، ولا تصم الأذن عن ندائه، فيلج عمه رحاب الإيمان؟، هذا اذا أردنا للأمور أن تلتوي، ولكنها كما كانت على نهج حكمة وسداد، في مقدمات رضية، ونتيجة بهية، فأبو طالب ما التوى حتى يُزعم أنه لم يستقم، وما سقم حتى يقال أنه لم يبرأ، ولقد كان في قومه بخصاله وفعاله مثلاً شروداً للصلاح، وأسوة يحتذى على مثالها في التنزه، ومنارة يستضاء بها على مسار النبل والتسامي. وليس عجباً في حكمته إنه حين يبصر وهو النابه البصير عتوّ قومه على نبيهم، وتماديهم في الطغيان عليه وعلى أتباعه، ونفرتهم الخرقاء مما يدعوهم إليه لأن به موت شهواتهم الجامحة، وقتل نوازعهم الهابطة، وذهاب مصالحهم الدنيئة، وحين يرى أبو طالب عظيم مكانه عندهم، وجم حبهم له، وبالغ اجلالهم إياه ـ يكتم عنهم إيمانه على سجية من مؤمن آل فرعون، فيلين لهم صفحته، ويتخذ من رفيع منزلته عندهم سبيلاً إلى نشر ضياء الحق في أنفسهم الداجية ومغاورهم المدلهمة، ونثر بذور الهدى في شعابهم الخاوية، وكذا فعل أبو طالب، وشهادة التاريخ صرخة ترن في سمع الزمان، وليس من حكمة الله أن لا يسلم أبو طالب لتكره

على الضلال آفاقه المتفتحة للحق والخير والجمال، وما لنا نتمحل في الأمور كي ننصب منها شاهداً على ما يجيش في صدورنا، وتهوي إليه نفوسنا، ولو كان مما يقصم ظهر الحقيقة؟، وهل أبصرت عيناك يوماً هدى كهدى محمد يحتمي بضلال، أو غياً يلوذ به إيمان، بل يأتيانهما شاكيين مستنصرين، ليشكياهما، وينتصرا لهما من عدوهما ومن سامهما الخسف والأذى، بل يندفعان من آفاقهما المترعة بالبذل والحماية ليسطرا بالفعل والقول روائع المحاماة، وبدائع المفاداة؟

وإن كان عاراً على أبي طالب أن يتابع الحق فالأغلظ منه أن ينصره، وإن كان للرحم قد عاضده فعلى تيهه المزعوم قد آزره، فنصره للحق، وحربه على دين قريش وحماقتها هي اسمى بيان منه لأزكى إيمان عنده.

ويا عجباً والله، أنى للمؤمن بل لفيض الإيمان (محمد) أن يستريح إلى ظل كافر، ويعيش معه بكل ما للعيش من معنى، ويقر له سلطانه على زوجه الطاهرة البتول بنت أسد فلا يقول له اليك عنها وعن وجودي يا عماه، وقد عهده سريعاً في شؤونه، مهطعاً إلى رغباته؟!، أو يقول على الأقل لنفسه ولبنت أسد المؤمنة الصدوق أن يتنحيا عنه مادام لا يرعوي عن غيه؟

وليت شعري هل كان أبو طالب لو افترضنا غوايته على تلك الدرجة من الحمق والضعف وفقد المتانة والشخصية بحيث يرى بيته قد غدا

مباءة للإيمان، ومستثاراً للنصرة، ويبصر زوجه فاطمة وابنيه عليا وجعفراً حماة لمحمد ودينه، نشطاء في عونه، ثم لا تأخذه حمية دين، ولا نخوة عقيدة، ولا يحرك ساكناً، ويستسلم للأمر الواقع على كره مهزوم ؟. والاغرب من ذلك أن يعج تاريخه في حياة البعثة بالمواقف التي لا تحسب الا لطلاّع الثنايا من الحماة والناصرين؟!

وما هذه الجَلَبة في تكفيره، وما هذا الرهج في الحكم عليه بالضلال ـ إلاّ لغاية في نفس الطاغوت، وإلاّ لكان نُسي كمن قد نسيه أو تناساه المتهمون ممن ماثلة من قبله أو معه أو بعده، ولم نكن في حال مضنية من صيال الأدلة ومثاورة البراهين، وما بأزائها من سطوة الرد وبأس الانكار، ولوعة الأسى على رمي الحقيقة السامية بقارعة التبديل، ونبذ الأمر الجلي في هوة الكتمان، وليت شعري هل من الخير للمرء في هذه الفتنة العمياء إلاّ أن يميل إلى نسبة الإيمان إلى ابن عبد المطلب، ويجفو نسبة الكفر إليه، فمن الهين أن يلبس ثوباً من لا يستحقه بحسن الظن، وصرف الأمور إلى وجوه الخير، وحملها على أحسن المحامل، ولكنه ثقيل موبق أن ينزع إلى دنيا السلب، فيخلع ثوباً عمن هو أهله، وقد نهى الوحي حتى عن أن يقول المسلم لمن ألقى إليه السلام لست مؤمناً.

فيا أيها الفذ في إيمانه وتقاه لا تأس، فما النكران إلاّ دليل باهر، وما الشدة فيه إلاّ لأمر عاثر، وأنّى لغمامة أن تتكنف شمساً دفّاقة بالضياء؟، وأنىّ لريح المكر أن تهزم الشموخ في شأنك العظيم؟، فلو كنت خبيثاً ما

هاجت عليك مشاعر الخبيثين، والأشياء تعرف بأضدادها، ولو كنت نسياً ما بدوت تكدر صفو الحاسدين بجلالك المكين، فليكن هذا الزبد الهائج ضدك آية تهدي إلى مجدك المحسود، ودليلا زاهراً على صلاحك المشهود، ولو لم يكن ثمة نور يرمضهم لما كانوا يلهفون إلى غيهب الديجور ليحجبوه، ولو لم تكن ثمة عظمة يؤرقهم شموخها لما امتدت الأيدي لتعصب العيون حتى لا تراها، وتدفن البصائر في الطين لتغيب عنها.

فوا عجباً لك وللقمة التي انبثقت منك، وكان بعض الكيد لك أو كله ليحيق بها في النفوس مكره الكاسر، ويهد مقامها الأعلى تياره الجموح ـ كيف يكون الليل الذي يساوركما نهاراً أبلج يدلّ عليكما؟!، وكيف تغدو الجحيم التي همت بمجدكما روضاً عاطراً يسرح في آفاقه؟!.

وأنذر عشيرتك الأقربين

بنو هاشم سادة العرب وذؤابة المجد، ورثوا المكارم كابراً عن كابر، وكانوا لها أهلاً وموطناً، فهم أصوب القوم رأياً، وأعلاهم حلما، وأعدلهم حكماً، وأكثرهم كرماً، وأسمحهم يداً، وأمضاهم بأساً وعزيمة، وأسماهم نخوة وحمية، وارفعهم عفافا ونجابة، فهم الهام والسنام، وموضع الاجلال والاعظام، قد ملكوا أزمّة القلوب، ونالوا أعنّة النفوس، وحلوا فيهما مكاناً قصياً ومحلاً علياً، فلو أنهم اسلموا واتبعوا النور الذي جاءهم به ابنهم لكانوا لقريش وسائر العرب قدوة، وكان لهم بهم أسوة، فيؤمنوا بالذي آمنوا به، ويتبعوا هداه، ولعل بهم إذا أسلموا وصدقوا أن تنكسر شوكة العتو والنفور مستكينة أمام سلطانهم.

واندفع محمد إلى مبادأة أعمامه بأمره، فأطلع عضده وموضع سرّه علياً على ما عزم عليه، لقد أسرّ إليه:

(اصنع لنا طعاماً، واجعل عليه رِجْل شاة، واملأ لنا عِسّاً من لبن، واجمع لي بني هاشم حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به).

وفعل علي، وائتلف جمعهم على طعام الرسول، ونفس أبي لهب من بينهم تحدثه بشتى الهواجس:

ماذا يريد محمد من هذا؟!

(لم يفعل معنا مثل هذا من قبل؟!)

(ما هذا الطعام الذي يقرينا عليه، ولست أراه يسد جوعة أحدنا؟!)

(انه ليس عن كون ما جمعنا له هو أمره الذي جاء به ـ مهرب، فلأوصدن في وجهه الباب إلى (ما يبتغيه، ولاردن يده في فمه، ولأجعلنه يبوء بالخيبة.)

ومد الرسول يده إلى الطعام قبلهم وقال:

(ادنوا باسم الله).

ومدوا أيديهم إليه فكأنهم مدوها ليزيدوه إليه لا لينقصوه، واستمر ينافحهم حتى أهزم جوعهم واشبع بطونهم، وقدم الرسول إليهم الشراب، وقال:

(اشربوا باسم الله).

فارتووا جميعاً، وكاد الرسول أن يتكلم بالذي جمعهم له لولا أن سبقه أبو لهب فقام بينهم ذاهلاً مندهشاً، يتميز حسداً وغيظاً، واندفع ليسد الطريق دون ما يريده ابن أخيه، ورفع عقيرته:

(لشدما سحركم صاحبكم).

وتفرقوا، وعز على سعي الرسول مبتغاه من فعلة عمّه، ولكنه لم ييأس، فأمر علياً قائلاً:

(الغد يا علي، إن هذا الرجل سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت، ثم أجمعهم لي).

وفعل علي، ورأوا من النبي مثل الذي رأوا بالأمس، وانتفض أبو لهب ليكون سداً بين الرسول وغايته، ولكن صدق الإيمان دفع أبا طالب ليصرخ فيه:

(اسكت يا أعور).

والتفت إلى الرسول قائلاً:

(قم يا سيدي وتكلم بما تحب، وبلّغ رسالة ربك، فإنك الصادق المصدق).

وتكلم محمد فقال:

(يا بني عبد المطلب إن الله بعثني إلى الخلق كافة، واليكم خاصة، فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين)، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان، تملكون بهما العرب والعجم، وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، شهادة ألا ان لا إله إلاّ الله، وإني رسول الله، فمن يجبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه، يكن أخي ووصيي، ووزيري، ووارثي، وخليفتي من بعدي).

وأطرق القوم كأن على رؤوسهم الطير، ولم يجبه أحد إلاّ علياً، فإنه قام بين يديه، وقالها بصدق وحق:

(أنا يا رسول أؤازرك على هذا الأمر).

فجاءه النداء الحق مجلجلاً بالصدق:

(اجلس فأنت أخي، ووزيري، ووصيي، ووارثي، وخليفتي من بعدي).

وإلاّ أبا طالب فإنه قام كابنه، وقال لنبيّه:

(ما أحبّ إلينا معاونتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك).

وشبّ في القوم لهيب الحسد، وغشى بصائرهم غِربيب ظلماء الغيرة والخُيلاء والزهو، وقد أذهلتهم عن فطنتهم لسعة النداء، وصورة المعاضدة من علي وأبيه، فقاموا ساخرين قائلين لأبي طالب:

(ليهنك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك).

وانصرفوا يتسعرون بلظى غيهم وغيظهم، وظلت النفوس الثلاث الطواهر الزواكي تجتالها مرارة السدم على أهل الشقاق والرثاء لهم عن موطن الارتياح.

النداء الجاهر

أوشبت ضفتا نهر الهدى، وأزهرتا بالطيبين من تابعيه والمخلصين من المؤمنين به، وكانوا أربعين في ثلاث سنين من الدعوة، فيا ويح ذلك

الأعراض ما أطغاه، وذاك الرفض ما أعتاه!. وآن لدار ابن أبي الأرقم أن تنفتح بنورها على الملأ القابع في كهف غوايته، وحان للثلة الزاوية في الشعاب أن تصرخ باسم الإيمان على مسمع الناس، وراح صوت الإسلام يفصح عن نفسه في قريش بعد ما كان حبيساً في سجن الكتمان، وها هو يبدأ انطلاقه في دنيا الجهر والاعلان من فم الرسول، فلقد صعد على الصفا ونادى ـ **يا صباحاه** ـ وهو نداء ألف الناس أنهم إذا سمعوه هبّوا لنجدة المستغيث بهم، فبرزوا ليروا أي واحد من المكروبين هذا الذي ندبهم لعونه ونصرته والأخذ على يد ظالمه، فإذا هم بمحمد، فعلموا أن له أمراً جسيماً، فليس هو بالذي يعبث أو يدفعه لهذا هين الأمور، حتى إذا اجتمعوا لديه قال لهم:

(ارايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقوني)؟

فدوّى لهم صوت واحد:

(أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً).

وإذ أخذ منهم اقرارهم هذا، انطلق من على متنه قائلاً:

(فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد).

وانبرى إليه من بينهم ذلك الرجل الذي وقف بالأمس بين أعمامه متهماً إياه بالسحر، محذراً من الوقوع في حبائل نفثه وفتله، وكانت صيحته:

(تباً لك، ألهذا جمعتنا؟!).

وهكذا كان الأمر، وسيظل كائناً:

ازاء صبح الخير يختال ليل الشرور، ولدى إشراقة وجهه تعصف دهماء الغواية، وعلى مسار الحق تدوي عرامة الباطل، وتتلوى أفاعي الغي والبغي فاغرة أفواهها، تهم بالانقضاض عليه، ونفث سمها الزعاف فيه، وتتغشاه أهاويل البطش لتذيبه وتعدم الحياة نوراً يكشف سجوف المتاهات، ويجلو أطباق الدجى، ويجنّب الناس كربات المسير في الليل العسير.

ومحمد العظيم الذي سطعت على شفتيه بسمة السماء، واشرقت من وجهه هلّة اللطف، وتندّى قلبه بطيب الهداية، كان خليقاً بأن يجبهه جند الظلام واتباع الغي، فيصبوا عليه العذاب صبّا، ويمسي وله من فوقه غواش منه ومن تحته مهاد، وتتلظى عليه أرجاؤه، وتثور في وجهه غوائل السوء، تصوّب إليه معابلها، وترميه نار الحماقات المغيظة بشرر كالقصر من حممها، ولكنه وقد مدّ إلى هذا كله يده الحانية الطهور ـ جعله هباء، فلم يظفر منه بما أراده، ولم يزده العسف الا صلابة، ولم يجلببه البأس اللاهب إلاّ درع الصمود، ولم يتمالك أن بكى واسبل دمعه رحمة بالنفوس التي ارهقتها كظة البطنة بالاشراك فثالت، واسكرتها خمرته الجيّاشة فانزفت، واندفعت مخبولة إلى المهاوي حيث ضياع

الرشد، وموت الضمير، وفقدان الشعور بالحب والخير والجمال. وتلك هي سنة الله التي لا تبديل لها ولا تحويل:

للخير شر يثاوره، وللنور ليل يصاوله، وللعدل ظلم ينابذه، وللحسن قبح يساوره، ليعلم الله من أحسن ومن اساء، فيجزي الذين أحسنوا بالحسنى ويخزي الظالمين.

ولطف السماء وقد هبّ نسيماً عليلاً يفوح بالنور والعبير كيما يلامس لقريش تلك الوجوه الباسرة المتجهمة، فيزيل عن ساحتها تقطيبها بوجهه، واعراضها عنه، فيلج القلوب الدنفة، ويشفيها من اسقامها وعللها، ويعيدها صحيحة سليمة تقدر أن تعي وتتقبل- لم يجد منها إلا ثورتها كالبركان الهادر، ودمدمتها كالرعد القاصف، ودويها كعزيف الأعاصير، ومضت تحوم حول قلعته التي حصّنها أبو طالب بجلاده وصبره وذبه تبحث عن ثغرةٍ تنفذ منها إلى أمره لتبسله، وإنها لتصيح ويعلو صراخها:

ـ ما لابن عبد الله؟، وأي داهية قد ألمت به؟، أنى يريد أن يحطم الأرباب، ويدوس الأصنام، ويكفر بالسيادات، ويطلب من الأكابر وأهل الزعامة أن يذروا ما كان يعبد آباؤهم، ويخلعوا كبرياءهم، وأن يخضعوا له نبياً هادياً، ويسمعوا لأمره، ويطيعوه؟، ذلك ما لا يكون أو يزهق.

وها هي حبائل شتى، ومكر ذو ألوان، مضت قريش تقصد أمر محمد بها من كل وجه، عساها تصيب منه مقتلاً، فتنتهي المحنة الحازبة، ويغرب هذا البلاء الجسيم.

ها هي قريش تهرع إلى عم الرسول الذي لا تزال ترى فيه ندّها في الدين، وظهيرها فيه على أعدائه، ولعله إن سمع شكاتها وتخوفها من أمر ابن أخيه أن يكفه، ويسدّ عليه منافذ التلويع لقريش باعلانه الحرب على آلهتها وأمجادها.

لقد اجتمعت لديه كربيضة الضأن تنادي:

(يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ الهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فأمّا أن تكفّه عنّا، وامّا أن تخلي بيننا وبينه).

ولم يشأ الرجل لما عرفناه من حكمته في كتم إيمانه، أن يجاهرهم به، وينافحهم دونه ودون ابن أخيه، فردهم رداً ليناً، وخاطبهم خطاباً سهلاً، ووعدهم ومنّاهم، مداورة وتسكيناً للجأش، وفتّاً في عضد الغيظ. وظلت قريش تنتظر عقبى موقفها مع أبي طالب، لكنها لم تجد إلاّ محمداً وهو اشدّ مضاء على أمره، فلم يتحول ولم يتبدل، فارتاعت وذهلت، وعلمت أن عمه قد خدعها، وأظهر ما ليس في قلبه، فسعت إليه لتخدعه كما خدعها، وها هو حشدها الذي يزخر باحقاده، ويمور فيه صلفه وكبرياؤه، ينقل خطاه إلى بيت كافل الإسلام وحصنه المنيع ليضع عمارة بن الوليد بين يديه، ويقول له:

(يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، انهد فتى في قريش وأجمله، ولك عقله ونصره، فاتخذه ولداً لك، واسلم لنا ابن أخيك فنقتله).

وكاد الرجل الحكيم ذو الغاية العظيمة أن يكسر عنه طوق حلمه ويفضح غايته، فما لهؤلاء الأكابر لا يكادون يفقهون ما يقولون، ولا يعون معنى ما جاؤوا به من منكر الأمر وفظيعه؟، وأوشك أن يصرخ بهم: اغربوا عني، لا هديتم لرشد، ولا وفقتم لخير.

لكنه أحب لما في نفسه أن لا يطير في فظاظة القول وقسوة الردّ إلى هذا المدى، فتطامن وقال:

(والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً).

وانصرفوا عنه خائبين، وضاقت بهم السبل إلاّ سبيل تهديد أبي طالب بالحرب، وأن يجعلوا السيف حكماً بينهم، فلعله يختشي غوائل ذلك، فيقضي على ما في نفسه من عاطفة الرحم وعصبية الدم اللتين تدفعانه إلى مناصرة ابن أخيه كما ترى قريش، وكما يزعم من على هواها من بعدها من شاءت له نفسه أن يظلم الحقيقة، ويغمط حامي الرسالة حقه ـ وعندها تستريح وتهدأ، وتجد نفسها أمام محمد في وحدته، وانفراده، وتخلي حاميه عنه، فسرعان ما يمسي لقمة يلتهمها جوعها الثائر.

وهبت إليه بوعيدها وتهديدها، تزبد وترعد وتزمجر، وعلى غير عادتها في خطابها معه لما قرّ في نفسها من اجلاله واكباره قالت:

(يا أبا طالب، إنّ لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإناّ والله لا نصبر على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب الهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الطرفين).

وعظم في نفس أبي طالب ما رآهم عليه من الثورة التي تتأجج في أنحائهم، فلهم منها قصيف الرعود، وعزيف الريح الشديدة، وامعن تفكيراً فيما يحدّ به من فورة هذا النزقان الذي يجمح بهم، ويطامن ثورة العرامة التي تهزهم، وتؤزهم، وتدعوهم إلى التهديد باصلات السيوف، واشراع الرماح، واعلانها ضروسا نابية، فلا يلبث الإسلام وهو في بواكير شروقه أمامها إلاّ ساعة واحدة، ويمسي بعدها خبراً من الأخبار. ووجد أبو طالب السبيل إلى غايته، فأقبل عليهم بوجهه، والان لهم حديثه، والتفت إلى محمد الذي كان بجنبه ليقول له قولاً يهد به جموحهم، ويسكت غلواء ثورتهم ودعارة طيشهم:

(ابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيقه).

وأصاب بهذا عين ما تمناه، ووجدوا هم به بعض ما راموه، فسكنوا، وخبت نار شراستهم، وحسبوا أن أبا طالب قد أوشك لما وجده من العناء لنصرته ابن أخيه ـ أن يتخلى عنه، ويتبرأ منه، ويدعه والاعصار الجائح وحيداً لا يلبث أمامه إلاّ طرفة عين، ويكون بعدها كأن لم يكن.

وشاء محمد لحكمته أن يريهم أنه على أمره وعزمه فيه، وبسالته لأجله، وثباته عليه، فالتفت إلى عمه وهم بعد لم ينصرفوا، وانفتح عنها ثغره أروع كلمة يفوه بها رائد صامد:

(يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه).

وحين هموا أن ينصرفوا رغم هذا الرد الغليظ من محمد ـ بحسن ظنهم بأبي طالب لما سمعوه منه التفت هو إلى حبيبه وأثيره، والقاها على مسمعه:

(اذهب يا ابن أخي وقل ما أحببت، فو الله لا اسلمك لشيء أبداً).

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر بذاك وقرّ منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

هذا هو نداء من عرف الحقيقة، ووعاها، ورثى للقابعين في غياهب البعد عنها، وأبى الاّ أن يكتسح بضيائها ونصرها والذب عنها ـ تلك الدياجير، وليقض المنون إن كان دون ذلك ما هو قاض، فإنما ينهي هذه الحياة الفانية، وعند الله جزاء من نصر الحقيقة، وثواب من ضحى بنفسه في سوح النضال عنها.

واعيت قريش الحيلة، وحارت بها الدروب، ولم تجد من طريق تسلكه إلى قتل روح الدعوة بعدما نفضت يدها من كل المكائد التي حاكتها لذلك، إلاّ طريق التنكيل، وفتح أبواب العذاب، ورمي محمد وأتباعه في غياباته، وفي غمار مضاعفاته، فتوردهم نكاله، وتذيقهم وباله، ولو دعاها ذلك إلى ورود حياض المرارة في إيذاء الأحبة، وتعذيب الأقربين، فإنه سهل يسير، من أجل غاية عذبة وحلم لذيذ، هو القضاء على أمر ابن عبد الله، ولئن أهلكت جمعاً من بنيها لتسد على نور محمد طريق انتشاره واستطارته، لخير لها من أن تدعه لسلامتهم يشق بسراجه عباب الدهماء صوب معاقلها حتى يحتويها باشراقه، ويضمّها إلى كنفه الرحيب المستنير، وعندئذ يطوي محمد صفحة وجودها ومجدها، ويرميها في قعر النسيان.

ومضت تتفنن في تعذيب اتباعه، وتطلع عليهم بالعذاب الوانا، فأما من كان منهم فيها في عزة ومنعةٍ فذاك الذي راحت تعيّره باسلامه، وتذمه لتركه دين آبائه، وتصيح به:

تهدده بالبوار، وانسداد باب رزقه علي

(تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك).

وأما من كان فيها تاجراً، فقد راحته:

(والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك).

وبقي الذي لم تنبت له خوافي المكانة وقوادم الطول، وذاك هو من حقت عليه لعنتها، وسامته الآلام، كل أولئك كان من أجل أن توصد بالشماتة والتعيير، والتهديد، والترهيب، والإيذاء والتنكيل باب الراحة على من آمن، لينضوا عنهم ثوب الهدى، ويكرهوا العيش في أجوائه التي سعّرتها قريش بغيظها، ويعودوا إلى دنياهم الأولى رغم ما فيها من أوزار الشرك الباهظة القاسية. وفعلت قريش، ولكنها باءت بالخيبة، فمحمد قد فتح للذين تسد عليهم أبواب الحياة مقاطَعين، أو مقتّلين، أو مشردين ـ الباب الرحيب إلى حياة أخرى لم تنظر مثلها عين، ولم يبلغها سعي بال، لهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، فمن أحبّها واشتهاها، فليصمد في سبيل الحق، وليعرض نفسه للمحن من أجله، فإنها سعادة الأبد في دار الخلود، وأي عاقل لا يشري بها أياماً من المكابدة قصارى شرها أن تكون غاية البر بالشهادة؟.

الفداء الأول

انصفت يد الأقدار حين ساقت ذلك الرجل الطيّب من بلده إلى ديار رصدت له فيها عين المشيئة المسددة غاية الخير، وأعدت له فيها ذروة المجد والرفعة، وكان دافعه إلى سلوك السبيل إلى مكة هو بعض ألطاف السماء.

لقد أمّها وشمس الإسلام لا تزال ترنو بين حُجُب الانتظار، وتتأهب للشروق العظيم. ويقر قراره في الدار الجديدة بزواجه من أمَة من أواه، تلك سمية الخير، وما إن خشع الوجود لبزوغ شمس الخلود، حتى هفا قلب الغريب إليها، واستهوته، وشغف بها حباً، وانطلق من غمرة ظلامه صوب معين الضياء الذي راح محمد يحمله على كفيه ليسقي الظماء إلى الرشد من فيضه الزلال، ومضى ياسر بنفسه الصادية إلى المنهل السلسال ليكرع فيه، فيبل ذلك الغليل الخانق، وكأنه حين ارتوى صاح بدنياه الصاخبة:

ها انا ذا قد ارتويت، فهيا اجبهيني بكل سوء، واقصديني بكل شر، ولتعصف بساحتي رياحك، ولتنشب بي مخالبها آفاتك، فلقد وجدت الحق، ووقفت على ينبوعه، فلن أحور عنه، وهل يرجو المرء في دنياه إلاّ الخير، وإن شئت أن تصرفيني عنه فلن تصرفي إلاّ جثة هامدة قد نأت عنها الروح إلى السماء. وكانت زوجه سمية نظيره في ذلك، وكذا كان ابنهما عمارا، وكأن الثلاثة قد كانوا على موعد فيه، فكيف يفعل يا

ترى كافل هذا الغريب، والمتفضل عليه بنعمة العيش الرغيد، وهو قد مَرَق صابئاً، ودخل طوق العصيان عامداً، وتنكر للمعروف، ونسي الاحسان، وآمن بالذي لم تجد قريش أثقل عليها منه، ولا أدهى من بلوائه؟، وان ابن أبي المغيرة سيد من أسيادها، وفي الطليعة لدى المعارضة والخذلان، وقد انطلق من بيته صراخ باسم الله وحده، وأصوات تهتف باسم دين محمد، فيا ويل حذيفة من هول العار والشماتة، فقريش ستحثو عليه ترابهما، وستسومه سوم الخاسر في المضمار، وهو الذي ما فتئ يعظم لها موقفه من محمد، ويرفع من شأن صلابته في شركه بآثاره وتجلياته. واشتد أبو جهل إلى التنكيل بهم فأخرجهم إلى الرمضاء، وقد أثقلت كاهل الأرض فورة القيظ، وأخذت منها بخناقها، وطرحهم ثمة عراة الأجساد على الثرى اللاهب، ومن حوله أوباشه يدمدمون ويصرخون، وقد أشرعوا سياطهم وعصيهم وحرابهم، وأعدوا لفرائسهم دواهي العذاب.

ولقد فرغ صبرهم، وطال عليهم موقف الطاغية من صيده، وودوا لو تنحى عنه ليروه كيف يكون الفتك والإيذاء. ونالوا ما اشتهوه، وكأنه صاح بهم وقد تنحى:

عليكم بهؤلاء الذين أمكنوا محمداً من قلوبهم، أروهم من الشدائد ما لا تحتمله الرواسي، واذيقوهم من الدواهي مالا تطيقه الصم الصلاب، مزقوا أجسادهم بسياطكم وحرابكم، خذوا بخناقهم، عذبوهم بلذع النار،

أغرقوهم في الماء، صبّوا عليهم البلايا صباً، لا تدعوا سبيلا في العذاب أو درباً في الايلام إلا سلكتموه بهم، أحيلوا الدنيا عليهم جحيماً، واملأوا عليهم آفاقهم رعباً، لعلكم تنيلوني ما أتمناه من ردتهم عما صبأوا إليه.

وانقضّت الذئاب على الفريسة فانشبت مخالبها في جسمها، فهلست لحمها، وهشمت عظمها، ومزقتها أشلاء، والأفواه الطاهرة لا تفتأ في هذه الحال العصيبة الحازبة تعبق بطيب الإيمان وبآياته وكلماته، تشدو التسبيح لله وتقديسه وحمده على ما هداها للحق، وجعلها ممن يذوق بطشة الأهوال من أجله.

ولم يعتم قلب المصطفى يتميّز للصروف التي حلت باحبابه، ويمور ألماً لاتباعه الضعفاء الذين تغشتهم الداهيات، وتكنفتهم الرزايا، وتكثفت عليهم غاشيات الكروب، وطارت بهم رياح الهول في كل آفاقه. وأطرق حيناً من عنائه، فما الذي يفعل؟، وليس في يده حيله يفكهم بها من أسر العذاب. وليت شعري هل غاب عنه أن لديه سلطاناً عظيماً هو فيه في سعة القدرة على أمر انقاذهم وفكاكهم من بلائهم، فليس يتكأده أن يرفع يديه إلى السماء وقد غمر راحتيهما بدموع التياعه، تشب منها لظى آهاته وزفراته ليبثها شكواه المريرة، ويستعطفها أن تمن على رهائن السوء من صحبه بالنجاة، وبذلك يذوب ما أعضله وأعضلهم، وتفل عقدة الكرب التي استحكم شدها على دعته وأعناقهم.

إنه ليعلم ذلك، ولكن يمنعه عنه شيء واحد هو بضعة من كبد الإسلام، وشنجة منه، وقبسة من نوره، إنه الأمر بالصمود على الحق، واحتمال المسير الثقيل على دربه الطويل الذي حفت به الرزايا والمنايا، وترصّدته الدنيا بأنواع الكربات،وانه مجابهة ذلك بالعزم والمصابرة والبأس والأقدام.

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).

لم يرد الإسلام من أبنائه أن يقابلوا البأساء بالاستسلام، والأسى باليأس، والهزاهز بالانهزام، والمحن بالانحناء، والسطوات بمد اكف الضراعة إلى الله، والبكاء عنده من صروف الباطل، وسؤاله النصر والمنعة، هذا ما لم يرده الله لأهل الحق، ولو فعلوه وتركوا ما أمرهم به من الكدح والجد لنصرته، والبذل والفداء لاعزازه، لباؤوا بالخسران و الهوان، ولسُلِّط عليهم شرارهم يسومونهم سوء العذاب، ولكانوا أوقعوا أنفسهم بأيديهم بين أنياب الباطل يجرعهم نَغَب المرارة. ولقد كان نفر ممن أخذهم الخوف، ودبّ في نفوسهم اليأس، واستبد بهم القنوط أمام عرامة الضلال وغلواء الباطل ـ يأتون النبي، ويشكون ما عليه أهل الإيمان من الأوصاب والأحزان، ويسألونه أن يدعو الله أن ينجيهم من أوهاق الخطوب ويعزهم بنصره، فينظر إليهم نبيهم نظر المغضب أو العاتب ويرد عليهم:

(إن من كان قبلكم ليمشط بامشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلاّ الله عزّ وجل والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

ولا يجد نبيّ الحكمة غير السلوى لنفسه بالاحتساب، والعزاء لمن تضمنهم العذاب باطوائه بسؤال الله القبول، وينهض مثقلاً بهمومه ليتجه صوب المعذبين، ومن بعيد كانوا كأنهم قد شموا عَرْف روحه، وتنسموا طيب قلبه، وأحسوا بمقدمه عليهم، فراموا أن يهبوا لاستقباله ولكن انى لهم ذلك وقد شدتهم آلامهم إلى الأرض، وربطتهم كبولهم بها فلا يطيقون حراكا، فراحوا يلهجون بذكره، ويحدقون بعيونهم التي كاد أن يسملها أليم بلائهم ـ في محياه المشرق. ودنا منهم، ووقف عليهم بدمع لا يبارح التهتان، وزفرات لا تهجر الجَيَشان، ونفس لا تعتم تذوب في أساها. ويمد يده الرفيقة الحانية التي تشع بالرحمة، وتفيض بالاشفاق ـ إلى قلوبهم المحزونة المكلومة، ليجلو عنها أشجانها، ويأسو جراحها، وينشر عليها ظل الاحتساب، ويسكب فيها فيض الأباء والعزم على ملازمة الهدى، حتى لو دعاها ذلك إلى الردى، فما أعدّ لها بعده من الحياة الخالدة الآمنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر هو خير لها من الدنيا ولو صبّت عليها فيها كل لذاذاتها وطيوبها. ويطلقها خاشعة

الحروف، نيرة الكلمات، لها في نفوس المكروبين قدس وجلال، وفي قلوبهم عزم ويقين.

(صبراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة)

وكأن سمية الطريحة المكبلة وجدت ريح رسولها الميمون الذي يهم بالعودة من ساحة العذاب مثقلاً ازاءها بالحزن والعجز، فلا قدرة له إلاّ على الأسى والا صطبار، فرنت إليه بطرف فاتر غام بدمعة استثارها العشق والشوق، يتملى ذلك الملاك الساحر الذي استحوذ جلاله على قلبها، فطفحت على شفتيها الذابلتين خبيئة نفسها:

الفتح يا محرر النفس من كبول العبوديات والأوهام، ومحطم الأغلال التي ارهقت القلوب والمعاصم، يا من ركل العرف الغاشم الذي نسلت عليه القرون، و عمل بأحكامه الغاوون، وكنتُ فيه أنا (المرأة) على طول المدى ضحية الأهواء، ورهينة النكباء، فباسلته بهداك، وناضلته باحتمالك، حتى أخرجتني من غيابة الذلّ والجهل والاستعباد إلى واجهة التحدي والتصدي، وكنت معك في أولى خطاك مع أنفاس خديجة، وبنت أسد، والمؤمنات اللواتي استخفين واللواتي استعلن، وها أنا معك في هذه الكبول والسياط والآلام التي أئن من لذعها، ليختلط هذا الأنين الأنثوي الصبور الوقور بأنين المعذبين من الرجال كصهيب وبلال، ليكتب لك تاريخ أمجادك أنك رائد التحرير والمساواة، وأن السابقين الأوائل الأوفياء في رسالتك هم المضحون من الرجال والنساء على حد

سواء، فهم معاً دعاتها وحماتها، ومن مهجهم يكون النجيع الذي ترتوي به شجرتها، ما دامت الدماء الطهور هي ريّها، وما دامت التضحيات هي زادها، وما يدريني، لعل هذه الأرهاصات التي أحسها كالألهام، وما استشرفه كالغيب من عقبى ما أنا فيه من الخطب ـ هي البشير لي بأني سأكون طليعة العطاء الرسالي، لتكون المرأة في خطك الوضّاء رائدة في قمة الولاء والفداء؟.

لك الشكر أيها القائد الفاتح الحبيب حتى ترضى وبعد الرضا. ألم يكفك ما أنت فيه من غصتك فوق طاقتها ولوعتك، لتحمّل نفسك من المرارات في مشهد العذاب ومذبح القرابين من اللواتي وصفتهن بالقوارير والرياحين؟

ألم تكفك الدموع الساخنة التي ذرفتها لهذه المظلومة التي اشجاك ان الجاهلية وأدت شخصيتها فصيرتها سقط متاع حقير، وسلبتها حقوقها إلاّ حق أن تعيش زريّةً في قفص الاتهام، ووأدت أنفاسها البريئة الوادعة في التراب لترحض عارها وشنارها، فهل لديك بقية من ماء الشؤون تسحّه في مشهد الوأد المسعور لبنات الهدى والنور، لأنهنّ تحررن بشرعك، وحفدن خلفك مشوقات إلى ذراك؟.

وينثني الرسول راجعاً ليلتقي بالأوغاد الذين هبّوا كالمردة إلى فرائسهم بجوع الغيظ وشهوة الأذى، لقد عادوا إليهم بنزقهم وطيشهم من

جديد بعد ما كلّوا، وملّوا، وآدهم صبر لا يطاق، وجلَد لا يلين، وعزائم لا تنثني ولا تنحني.

ويشتدّ بالرسول حزنه على هؤلاء الجلادين كما اشتدّ به على من يعذبون، وافاض لهم من محجريه دموعاً تتضرم، فهم تائهون ضائعون يتخبطون، قد حجبت عنهم الغشاوات التي ألقت برينها على قلوبهم وبصائرهم جلال الحق أن يبصروه، وضياء الهدى أن يعشوا إليه، وإنهم لجهالتهم أو غيهم صموا وعموا، واستحبوا الكفر على الإيمان، والتيه على السداد، فأوبقوا أنفسهم في الدياجي، وأوردوها سوء العناء. وأخذته هزة الحزن، ورمق بطرفه السماء، ونادى ربه:

(اللهم اغفر لقومي انهم لا يعلمون).

وانصبّ العذاب على ثلة الخير بعد ما فارقها ليجمع لها قواه التي شتتتها صلابتها وترفعها عن النكوص والاستخذاء، واعطاء خصمها ما يتمناه، واشتدّ عليها وقع الحراب التي أخلفت السياط، والنار التي أعقبت مكاوي الحديد، ولم يزدها هذا إلاّ صبراً عليه، وكفراناً بالآلهة والأسياد، وذكراً لله وحده. وتنطلق الأصوات مختنقة ضئيلة، تصك سمع الطاغية، وتطير بصوابه:

(بؤساً لك ولآلهتك).

وينقضّ أبو جهل على سمية من بينهم، وقد أرهقته بعظيم احتمالها، وقصمت ظهره بعجيب ثباتها، وهي المرأة، ومن يكون لمثلها موقف

الهوان في هذه الداهمة، فوا عجبا لهذا الإيمان وهذه العقيدة، أي عزم يصبانه في نفس هذه الوردة الغضة الناعمة، فيجعلان منها به طوداً ينافر الزعازع الثائرة، ونسراً عظيماً يطير في آفاقها؟! إنه الوعي الباهر بالمسير، واليقين الراسخ بالمآل. وراح يركلها برجليه، ويوسعها طعناً بحربته، حتى أتى عليها، ونداؤها أحد، أحد، ملء فمها، تردده أنحاؤها. ثم يهوي على زوجها فيفعل به ما فعل بها، ويورده ما أوردها...

عندها أخذه الأعياء حتى سقط، ولم يكمل مسيرة حمقه مع عمار ليلحقه بأبويه، وصاح بزمرته الغاوية: أن أذيقوه الموت، وألحقوه بمن سبقه إليه، أو يذكر محمداً بسوء، فيأخذوه إلى غمرات الأهاويل التي كمنت في مطاويها بشاعة الردى، ووضعوه في جلود الماء، وشدوها عليه، وتركوه فيها ينازع سكرات الموت على أنفاسه الأخيرة.

وفي حمأة العناء الضارية التي استلبت لبه، وقهرت وعيه ـ أجابهم إلى ما أرادوه منه من ذكر محمد بسوء، وعيب دينه، و كان في هذا نجاته من ربقهم الفظيع، وأدرك بعد حين أنه إنما نجا بعد ما أراهم ما تمنوه من عيب محمد وذمّ هديه، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، وزاغ لفرط الهول بصره، وبلغ قلبه حلقومه، ووقع في غمرة ندم مريرة، وأسرع إلى نبيه يقص عليه خبره، وما أشجاه وأجج عليه دنياه، فابتسم له الرسول، وأغرقه في سحر ضحكة نديّة، وجلببه ثوب البشرى باقباله عليه، وإسماعه قول الله فيه:

(من كفر بالله بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم).

وقال له:

(إن عادوا لك فعُد لهم).

وإنّك لتطل على دنيا العذاب الذي فجرته قريش على واردي معين الهدى ـ فتراها دنيا تتفجر أرضها بحمم براكينها، وتقذف سماؤها بالصواعق، وتستشري الجحيم في جنباتها، ويدوي اللهيب في أنحائها، وتلتمع الأسنة والحراب في أرجائها، وتتلع وسائل التنكيل كأنها رؤوس الشياطين، والفجرة الكفرة يتراقصون في تلك الغمرة العجيبة، يوردون اسرى جبروتهم ما لم يخطر على لب من العناء، ثم يشربون كؤوس المسرة على جسومهم الزكية ليترنحوا عليها. هنالك في تلك الزاوية يجثم الخباب بن الأرت، الذي ما إن هش للإسلام، وأذاب نفسه وقلبه في عبيره ونوره ـ حتى أمسكت به سيدته، وراحت تحمي على الحديد في النار، ثم تكويه بها حيث شاءت، لتفتنه عن دينه، وإذ لم تقدر أن تفتّ في يقينه وثباته أسلمته إلى أوباشها، فأوثقوه بالحبال، وولوا يجرونه نحو اللهيب ليسحبوه في النار على وجهه وظهره، ولو لم يطفئها شحم جسده لظلّت تأكل منه حتى تأتي عليه.

وها هنا تلمح بلالاً تتلوى عليه أفاعي الكربات، وتلسعه لسعها الماحق، وتتركه في مسيرة صارخة مع الموت، حتى إذا عاد إلى صحوه عادت إلى شأنها معه، ولم تزل ترميه بين الجائحات حتى لتكاد تقضي عليه، ولكن يشاء الله له أن يبقى، فلا يضره كل ذلك.

وإذا رميت ببصرك ذات اليمين في تلك الدنيا، أبصرت جارية هزيلة لوقع السياط عليها رنين إذ لم يكن يعلو جسمها لحم يبتلع صداه، وقد وقف عليها رجل غليظ شديد، لا يعصي هواه ما أمره، ويفعل ما يوحي إليه شيطان الغواية، فيروح يصعقها بتيار فتكه، حتى إذا أرهقه فعله، التفت إليها وقال في لهجة مرة ساخرة:

(إني أعتذر إليك، لم اتركك إلاّ ملالة).

فترفع إليه وجهها الشاحب المدمى الذي غارت فيه عيناه، وترد عليه بكلمة يفوح منها صدقها:

(كذلك فعل الله بك).

وإن أنت رنوت ذات الشمال، أبصرت صهيباً ينازعه جلادوه على روحه، يبتغون أن يخرجوا من جوفه قلباً قبل الإيمان وآواه، ليشربوا نجيعه بكأس الضغينة، ولسوف ينهد بصرك،ويرتد حسيرا إن أطلت النظر في تلك الدنيا وأنت ترى أهل الإيمان، نساء ورجالاً تتقاذفهم أيدي الرعب العاتية، وتتناوب عليهم سطوات الهول العصيبة، ترفعهم إلى عنان السماء، ثم تعود بهم فتدفعهم إلى أعماق اللجج، كل ذلك

لأنهم آمنوا بمحمد، واتبعوا النور الذي جاء به من عند ربه، فرأى الطغاة أن يساوموهم بدعتهم على نبذه، ولكن من تيمته الحقيقة وذاب في حبها لا تصرفه عنها تلك الدواهي، وهل بعد الحقيقة إلاّ الزيف الخادع، والزبد الكذوب الذي يذهب جفاء؟.

كل ذلك كان من قريش على النبي، ولكن على عمه وتابعيه، أما عليه هو فقد سعت إليه بكل آبدة قاصمة من المكائد والخطوب، وكان يبددها جميعاً، ثم يخرج منها ظافراً كالشمس يتكثف عليها الغمام، فتكشفه وتواصل مسيرة الاشراق.

لقد وضعت أمامه العقبات، ونثرت على دربه الأهوال، وفرشت طريقه بالبأس والشدة، وحفرت له تحت خطاه المهاوي، واضمرت له بل فجرت البراكين فتجاوزها منتصراً.

لقد جاءته حين دوى صوته فيها يدعو إلى الله وحده ـ بالصياح والزعيق، وولت تصرخ في الارجاء، فتردد صدى صراخها الأنحاء: مجنون، ساحر، كاهن، شاعر، كذاب، مفتر، يعلّمه بشر، قوله أساطير الأولين تملى عليه بكرة وأصيلا، افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، كلامه سحر يؤثر، وهو قول البشر، دينه خُلُق الأولين، ونظامه نهج الأقدمين، كل ذلك لوحره بخلال النقص حطاً من شأنه، واذلالاً لشخصه، وتضييقاً على روعة الجلال في قرآنه. فلم تنل قريش في هذا ما تمنت من هد شكيمته، وصرف القلوب عنه، ووضع الاستار على الأبصار دون ضيائه، وردم البصائر بالأثقال فلا تعود ترنو إلى سمائه.

وعادت إليه بشيء جديد من الكيد احتبلته من درة المكر الرهيب وكان هو الاغراء، فلقد حسبته ـ وهو الذي قد وجدته فيها بالأمس يتيماً،

فقيراً، عائلاً، نضو الوفاض، ليس له سلطان يدان له، ولا زعامة مهيمنة، ولا مقام ذو سطوة، ـ طالب دنيا وجاه، إنما فعل ما فعل بدافع العقد الدفينة، ليستغني بعد افتقار، ويرتفع بعد انحدار، ويعوّض ما فاته، فهبّت إليه وقد ظنت أنها عرفت الداء الباخع، فجاءته بالدواء الناجع، وها هي وعتبة الذي عرفته من بينها بحصافته، ورجاحة رأيه، وفصاحته وبلاغته، يقودها إلى محمد ليعطيه ما ظنت أنه يريده ويبتغيه. وتقف أمامه وهي ترفع على يديها النعم السابغة، وتلوّح بها أمام وجهه، بينما راح عتبة يحاوره، وقد جلس عنده جلسة الأب الناصح العطوف الذي يريد أن يكشف لابنه عن مواطن الزلل، فتكلم وقال:

(يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها).

وبرنة الساحر الذي غشى سخريته حلمه وترويه ليسمع ما يبديه محدثه، فليس من شيمه أن يختم على فمه قبل أن يتم مقاله، قال له:

(قل يا أبا الوليد اسمع).

وراح هذا يقص عليه ما جاءه به:

(يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا أموالاً، وإن كنت تريد به

شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك).

ويبتسم الرسول، ويقول لعتبة:

(**أفرغت يا أبا الوليد**).

(**نعم**).

(**فاسمع مني**).

وماذا يسمع منه، هل إلاّ ما جاء يساومه بكل شيء على نبذه وهجرانه واطفاء نوره، ليتسنى لجاهلية قريش أن تعيش وتفسد في الأرواح والضمائر والقلوب، ومضى يقرأ عليه من القرآن، فألقى عتبة يديه خلفه واعتمد عليهما، فكأنما قصم ظهره ما سمع، ولم يعتدل مجلسه عنده، وولت صروح البلاغة عند عتبة تتهاوى، وراح شموخ فصاحته يندك، ومضى تعالي بيانه يسقط في حضيض مهين، وخر ساجداً لهذا البيان الآسر والبلاغة الأخاذة، والكلم العجيب، وكادت نفسه أن تحترق بسعير عجبها وحيرتها، ولولا أن ناشد الرسول بالرحم أن يكف لاخترمته الدهشة والذهول.

وتجيئه قريش كرة أخرى بما جاءته به بالأمس، وتضع نصب عينيه البهارج والسفاسف، وتبث حوله اغراءها، فردها ناكصة على أعقابها، ولم يكن جوابه هذه المرة قرآناً بل من حديثه هو حيث قال لهم:

(ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم).

وما نالت قريش مرامها بسلاحها الرهيب الذي حسبته أصدق أنباء مما يليه ومما تقدمه، وولت تبحث في متاهات الأوهام ودياجي العبث عن سبيل إلى النجاة، وأطرقت ملياً، ثم قامت كأنها المارد وصاحت: إنه التعجيز والافحام، فلأنيخن على كاهل ابن عبد الله بالطلب الجسيم، ولا جبهنه بزعزع المستحيل التي سترميه في مهوى الهزيمة.

لقد هرعت إليه وقال قائلها:

(إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب فإنه شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل، فإن

صدقوك، وصنعت لنا ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول).

ولقد جاءته بآخر مثل هذا حكاه لنا القرآن:

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه).

وكثير مثل هذا وذاك، ولم يكن رد محمد عليه إلاّ ما أمره به ربّه:

(قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولا).

أو قوله هو:

(ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً).

إنه يريد لهؤلاء ألاّ يؤمنوا بأمره مأخوذين بالخوارق والمعجزات، وألاّ يذعنوا مكرهين بالدهشة والاندكاك أمام المذهلات، بعيداً عن بصيرة التدبّر وفريضة التبصر، فما خير ذلك الايمان الذي هو إيمان اللحظة المتضرمة بنار الاعجاز القاهر، لا إيمان المهل بتسليم القلب والفكر واذعانهما، ليضلاّ حتى نهاية الدرب يصبان في النفس عزم اليقين على التمسك بما آمنا به، والبذل له، ولو كان المعجز قد استدر الإيمان

من دنيا الحيرة، وأسكنه الفكر الذي لم يستوعبه والقلب الذي لم يعه، فلسوف ينأى عنهما إذ يفنى الشاهد المحير عليه، والدليل الخارق إليه، ويظل فيهما مهزوزاً، يتذاءب بين النضرة والذبول، حتى يسعفه مذهل جديد، وإلاّ تولى شطر حتفه، ولو كان لذلك الإيمان أن يسير بصاحبه إلى منتهى الشوط وغاية المدى لسطوة الخارق وهيبة المحير، بلا نظرٍ فيه، ولا توجه إليه، فهو إذ ذاك إيمان الارغام والاضطرار، لا إيمان الإرادة والاختيار، وهذا ما أراده الله، وذاك مردود على ذويه.

إنه يريد لقريش أن تؤمن به بعد ما تعيه رجلاً هادياً إلى الخير، ودليلاً على الهدى، ورائداً إلى الصلاح، وتعي دينه أحسن ما على الأرض من نظم وشرائع، وأروعها حكماً، وأعظمها سمواً، وأرفعها جلالاً، حتى يتسنى لمحمد أن يظل معها باجلالها له ووعيها لدينه يقودها طائعه، راضية، باذلة، مضحيّة الى الغاية التي أراد الله أن تبلغها.

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنّة إن هو إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد).

(أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟.)

ومن بعد هذا كله فقريش حيث طلبت منه ما ارادت لم تطلبه لتجد به الطريق إلى صدقه ثم تتدبر ما أتاها به، وتؤمن به عن وعي أو تكفر عن بصيرة، لكنها طلبته أفحاماً وتعجيزاً، لتهده وتسكت نأمته، ولو فعل لما آمنت، ولظلت تعمه في عماها، وصدق الله إذ يقول:

(ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين).

(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون).

ولو أنها كانت تودّ حقاً أن تلفي المسرب الآمن إلى تصديقه، والإيمان بأمره، وادراك صوابه، لكان يكفيها ما ينزل عليه من ربّه، فصدقه يفوح من جنباته، وصوابه تتشعشع به أرجاؤه، كما اعترفت هي بذلك، وشهدت به وأقرت.

(وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربّه، قل إنما الآيات عند الله، وإنما نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون).

ولكان يكفيها ما جاءها به من مثل ما طلبت، ولكنها رمته بالسحر حين أفحمتها الحجة. أو لم يشق لها القمر نصفين ثم يعيده إلى حاله، لكن عتاتها رغم ذلك ولوا يتصايحون وهم يجمحون.

(سحركم ابن أبي كبشة).

أو لم يرهم ما يحدثنا عنه صفيّه علي فيقول:

(ولقد كنت مع رسول الله وقد أتاه الملأ من قريش، فقالوا يا محمد إنك قد ادعيت عظيماً لم يدعه آباؤك ولا أحد من أهل بيتك، ونحن نسألك أمراً أن اجبتنا إليه واريتناه، علمنا أنك نبي ورسول،

وإن لم تفعل علمنا أنك ساحرٌ كذاب، قال لهم: وما تسألون، قالوا تدعو لنا هذه الشجرة، حتى تنقلع بعروقها، وتقف بين يديك، فقال: إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا نعم: قال فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لا علم أنكم لا تفيئون إلى خير، وإن منكم من يطرح في القليب، ومن يحزّب الأحزاب، ثم قال:

(يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين إني رسول الله، فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي باذن الله).

فو الذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دوي شديد، وقصيف كقصيف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله، وألقت بغصنها عليه، وببعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه، فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً، فمرها فليأتك نصفها، فأمرها بذلك فأقبل نصفها كأعجب اقبال واشده دويّا، فكادت تلتف برسول الله، فقالوا كفراً وعتوا، فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره فرجع، فقلت أنا لا إله إلاّ الله، فأنا أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً لنبوتك، واجلالاً لكلمتك، فقال القوم كلهم :

(بل ساحر كذاب، عجيب السحر، خفيف فيه، وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا؟ ـ يعنونني).

هذا ومثله، ولم تشأ قريش بعده إلاّ ضلالتها حسداً وبغياً، وأبت إلاّ أن تبقى غريقاً في خضم التيه والجاهلية المسجور بالعصاب والمرارة والبؤس والهوان، وما أرادت إلاّ أن ترهق حياتها بالعيش المرير في مفاوز البعد عن منهل الحق المبين.

قد يطيب لجمع من الباحثين والمحققين والمغرمين بالنزعة الواقعية والعقلية أن يؤطروا بها كل حياة النبي المصطفى، فيخرجوها من عالم المعجزات الخارقة، ويحصروها في حدود الخطى الرسالية المفعمة بالحيوية، والمكابدة، والنشاط، والمجاهدة، والاحتمال، وبذل الطاقات الهائلة لتحقيق الهدف المنشود، معتبرين أن حياة النبي في خصائص الصبر الوتر، والتضحية الفريدة، والعطاء المتوحد ـ هي أكبر معجزاته، بعد كتاب ربه الذي تبقى حدود إعجازه في خرق العادة البلاغية، والتشريعية، والثقافية، والعلمية، والغيبية، وغير ذلك من مظاهر التحدي القرآني، ومن هنا فإن معجزة النبي هي قرآنه وسيرته، ويرون أن تاريخه يجب أن ينزه عن ما عدا ذلك هما يعتبرونه أوهاماً، وأساطير، ومدعيات، ومزاعم بلا دليل سليم، ولا ضرورة ملزمة، مستشهدين بالآيات الآنفة على صواب رأيهم، معتقدين أن دين العقل والمنطق والاقناع بالحجة ليس بحاجة إلى خوارق للعادات وصواعق اعجازية. ويطيب لغير هؤلاء أن يشحنوا حياة الرسول بالحشود الهائلة من قصص الاعجاز والخوارق، معتبرين ذلك حقاً لكرامة شخصه، ومقامه، ودوره، ومسؤوليته، واقتضاء

مهمة الاقناع للآخرين بدعوى الارتباط بالغيب، و من هنا كان هؤلاء يستسهلون حديث المعجزات بلا تحفظ، مصوبين قاعدة التسامح في أدلة الخوارق والسنن والكرامات. وهناك فئة ثالثة وهي النمرقة الوسطى، ترى أن الله سبحانه جمع لنبيه اعجاز الشخصية والممارسة، واعجاز الكلمة (القرآن)، واعجاز الخارق المادي في استثناءات اقتضتها ضرورات قصوى قدرها الله وحددها، لأن الله سبحانه الذي يريد لمهمة نبيه أن تنجح بالأداء الرسالي المتميز بكل ما يستدعيه من الخصائص في النفس والعمل، لا يريد لها أن تفقد في المنعطفات الخطيرة واللحظات الحاسمة حقها اللازم في البقاء، والافحام، والتفوق، وابراز الأصرة الغيبية والعلقة الالهية، وعلى هذا فالرسالة الخاتمة لم تبتعد عن منهجها الاقناعي العام بالبرهان والمنطق، ولكنها لم تحرم من نوادر الضرورة بالاعجاز المادي المفحم.

ولقد أمعنت قريش في استنزال الرسول عن صلابته في أمره، وثباته في مبدئيته، فعرضت عليه أن تعبد الهه يوماً، ويعبد الهها يوماً، فإذا أجابها إلى ذلك أمكنها بعده أن تأخذ بيده القهقرى إلى ما تشتهي، وتعيد الأمر جذعة، فكأن لم يكن ثمة وحي ولا رسالة أنزلت من السماء. وتولى الله ردهم لشنيع ما يطلبون، وفادح ما يرغبون فيه من نبيه، وهو ما أرسله إلاّ ليزهق مرادهم هذا بدعوتهم الصارمة إلى أن يعبدوا الله وحده، ليروا في رحاب عبوديتهم الخالصة له تحررهم

وانعتاقهم من أصفاد العبوديات المقيتة التي تدوسهم باظلافها، وترهقهم باثقالها، وتسومهم سوم البهيمة، فلا تقيم لها وزنا، و تجرهم رويداً إلى الضياع والبوار. وكان الجواب صلداً غليظاً حازماً:

(قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابدٌ ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبُد، لكم دينكم وليَ دين).

ولم يفتأ القوم يمعنون بحثاً عن مرامهم ذاك، ويدأبون تنقيباً عن الذرائع إليه، ويقصدونه بأسباب تمنوا أن يلفوا بها غايتهم وهي أوهن من بيت العنكبوت، فإنك لتراهم وقد احتشدوا على رجل غريب طرق ديارهم لأمر من أموره، فما راعه إلاّ وهم منثالون عليه، يتجاذبونه بينهم، يلقون على سمعه كلمات متقطعة للهاثهم، يكاد يمازجها النشيج:

(ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا؟).

(ما يقول ؟).

(يزعم أنّ الله يبعث بعد الموت، وأن لله داراً يعذب فيها من عصاه، ويكرم من أطاعه، فقد شتت أمرنا، وفرق جماعتنا).

ومضوا يدعّونه دعّاً صوب محمد عسى أن يعاتبه فيجد عنده العتبى حينما تهدّ تصميمه وشموخ ارادته العاطفة التي سيذكيها فيه وقع كلمة الأب المرضع الذي نما في أحضانه، وشب واستقام عوده في دنيا عطفه واحسانه، وعساه إن سمع شكوى أبيه مما يؤذي به قومه أن تتمكن

شكواه من قلبه، فيروح لهيبها فيه يأكل من روح عزيمته وثباته. ومن بعيد يلمح محمد أباه المرضع فيجيش في فؤاده الشوق البالغ إليه، وتمر بباله بلمح البصر كل مشاهد الأمس الحالمة مع أبيه هذا، وينتفض قائماً ليسعى نحوه بأعظم ما يكنه امرؤ لأبيه من ودّ واجلال، وما يبديه له من خفض جناح وطلاقة وجه، وإن روحه الرفافة العطوف لتجيش برجائها الضارم إلى ربّها أن يهدي أباه الذي اغتذى لبنه من ثدي حليمة، ويشرح صدره للإسلام، فيكون بهذا قد فتح عليه أبواب النعم بابنه كبيراً كما فتحها عليه به صغيراً، وعسى أن يكون في هذا كله بعض الردّ، الجميل الأبوة واحسانها. ويلتقي الابن بأبيه، ويضمه إلى صدره، ويكرم مجلسه، ويفرش له فيه نفسه، ويفوه الأب بما ألقي إليه:

(أي بني ما لك ولقومك، يزعمون أنك تقول أن الناس يبعثون بعد الموت؟.)

ويبتسم له الابن ابتسامة أخذ سحرها بمجامع قلبه، ويجيبه برنة خاشعة تفوح بقدسها وجلال وقعها في النفس:

(لو كان ذلك اليوم يا أبت لقد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم).

ويشاء الله أن لا يموت رجاء محمد، فاسلم الحارث، ووجد لذة الإيمان وطيبه، وقرت عين ابنه البار بذلك.

ولئن أعجزت قريشاً مكائدها في دنيا السلم لمحمد إذ يعصف فيها يقينه من أمره وبصيرته فيه، فيطفئان نارها، ويرتد دخانها على العتاة فيسد عليهم منافذ النسيم، ويكاد أن يودي بهم، ففي عزمة التنكيل، وصولة الإيذاء، وسعير البلايا، ما يقطع عنق الهول، ويأخذ بخطب قريش إلى المهوى السحيق، وسيجد محمد نفسه وقد ثارت في وجهه الدنيا عنفاً وتبريحاً وصدوداً، فتستهيله الصعاب والفظائع، ويعود ادراجه. هكذا قدرت قريش غافلة أو متغافلة، ولم تعتبر بالذي فات من كيدها معه وعمه حيث لم تفز بطائل، وردت على أعقابها مخذولة مهانة.

وامتدت إليه بالأذى أيدي شرارها:

هذه يد تقذف بالغائط في داره، وتلطخ به صفحة بابه، وتغمر دربه بالشوك، وهذه تشدّ عليه بثوبه حتى لتكاد أن تخنقه به وتقطع أنفاسه، وتلك ترش التراب على رأسه، وتلك تصب عليه فرث الجزور فتصيّره على حال مبكية، وهذه ترفع الصخرة العظيمة لتختلس بها روحه، ولولا أن يتدارك الله نبيه بسبب النجاة لفعلت، وهذا ابن أبي معيط يأتيه إذ هو في سجوده خلف المقام ليضع رجله على عنقه فما يرفعها حتى يظن محمد أن عينيه ستندران من رأسه.

ويأتيه تارة أخرى بسلا شاة فيرميه بما فيه حيث هو أقرب ما يكون من الله في صلاته ساجداً يتضرع في سبحات الخشوع. ويلتمع له في قتام هذه المحن وظلامها ثغر خديجة ببسمتها الصبوح تجلوهما، وتمد

يدها الحانية إلى قلبه الراعف الرهيف تأسو كلومه وجراحه، ويسطع من فؤادها الودود العاطر طيب حنانه يغمر نفسه المكدودة الملتاحة، وتنساب من روحها الشفيفة الرفراف همس نجاواها العذاب تبدد شجونه و أتراحه. ويلتمع له فيها بيد أبي طالب بريق بأسه بعد يأسه، وهو يكرّ به على الالى أذاقوا نبيه البلاء، فيكيل لهم صاعه صاعين، ويتركهم منكسي رؤوسهم كاسفين واجمين.

فها هو يأخذ بيد المصطفى حين جاءه والفرث والدم يغشيانه بأمر أبي جهل وفعل ابن الزبعرى، وينطلق به نحو مجلسهم، قد حمل معه الفرث والدم، فيجدهم لمّا ينفضّوا، ويلتفت إلى محمد قائلاً:

(من الفاعل بك هذا؟).

(عبد الله بن الزبعرى).

فينقض عليه، ويوجئ أنفه، ويلطخه بما حمل معه، ويمر به على وجوه القوم فيشينهم، ويرميهم بالقماءة والصغار، يئنون تحت وقع هذا الخطب الحازب، ويأخذ بيد محمد ليرفعها ثم يعلي صوته:

أنت النبي محمدُ قرم أعزّ مسوّدُ

لمسوّدين أكارم طابوا وطاب المولدُ

انّى تضام ولم أمت وأنا الشجاع العربدُ

حتى يقول:

ولقد عهدتك صادقاً في القول لا تتزيدُ

ما زلت تنطق بالصواب وأنت طفل أمردُ

ثم هذا هو بعد ما جاءه نذير قريش، وهدده بالويل إن لم يكف عن نصرة ابن أخيه، وبعد ما افتقده إثر التهديد، يدفع بأعوانه، ويعطي كل واحد منهم صارماً عضْباً، ويأمرهم أن يختار كل منهم سيداً من أسياد الضلال، ويتربص به، حتى إذا عثر على محمد مقتولاً انقضّ عليه وقتله، ولكنه حين يجد صفيه سالماً ولم يصب منهم بأذى يشاء أن يري أولئك الطغاة ما قد بيّته لهم، إرهاباً لهم، وتعظيماً لموقفه في عيونهم، ويصيح بهم:

(والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً).

وصفحات أخرى مشرقة بالبطولة والاستبسال تبزغ من فجر الصلابة في أفق الإيمان الشامخ الراسخ عند ذلك المؤمن العظيم في دينه، و محاماته عن نبيه، وجهاده في سبيل ربه.

وعلى هدى هذا الموقف الباهر من أبي طالب في النصرة كان موقف لأخيه حمزة، فهو حين يتناهى إلى سمعه أن أبا جهل قد صادف محمداً عند الصفا فسبّه وعابه ـ تسعّر قلبه بالخطب العنيد، واضطرمت أحشاؤه بهول الفاجعة، واندفع كأنه الاعصار إلى نوادي قريش يجوبها بحثاً عن طاغيتها، حتى وجده وقد حفّ به بنو قسوته وغلظته على محمد، ينهلون منه الشدة عليه فهو بحرها المتلاطم، ويشهر الضرغام قوسه، ويخطو نحو غريمه ليشج رأسه، ويصرخ فيه:

(أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟!، فرد عليّ ان استطعت).

وقام بنو مخزوم من حوله ليردوا عنه البأس، وينتصروا له، ويرحضوا عن جبينه وصمة العار التي وسمته، ولكنه يخشى العاقبة الوخيمة التي ستشب لظاها لو أذن لهم أن يثوروا في وجه الأسد الهصور، ويشتبكوا معه في صراع رهيب له ما بعده. ويناديهم ليحد من سورة غيظهم على ما حلّ به من الكرب الفادح، وما ألمّ بساحته من الزلزال الشديد:

(دعوا ابن عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً).

وينصرف الهمام الباسل بفخاره، ويؤوب المهان إلى بيته ويده على مكان الشجّة في رأسه.

إلى الحبشة

عين النبي القائد الذي جاء ليفتح حصون الدجى بشمس هداه ونور شريعته، ويأخذ بزمام الأمور في هذه الدنيا ليمكنه أن ينشر فيها فيض الخير والرحمة، ويحكّم دين الله العظيم، ويبسط سلطانه المشرق، فلا يتسنى لليل الباطل أن يعود بآلامه ومرارته يرهق الأرض بأثقال العذاب الشديد ـ عينه لم تزل تدور في كل الأنحاء بحثاً عن ظل أمين يجد فيه الإيمان المحاصر انعتاقه من حصاره، ويكون مهجراً لأنصاره، ومنبعاً لأنواره.

ووقعت بعد لأي من بحثها على الحبشة، ورأى الرسول أن يلجأ إليها جماعة من أصحابه ممن أُوذوا وممن لم يؤذوا، فأمّا الذين أوُذوا فيجدون ثمة مأمنا، وأما من لم يؤذوا فيختبرون تلك الدار، ويمتحنون مدى رضاها أن تكون حضناً للإيمان، وفجراً لسراجه الوهّاج.

ودعا المصطفى نفراً من المعذبين وقال لهم:

(لو خرجتم إلى الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه).

وينطلق هؤلاء في طليعة الركب المهاجر، وقد جعل الرسول عليهم عثمان بن مظعون مرشداً فيهم، وواعظاً لهم، ورد‌ءً دون الشبهات، ولساناً عند الامتحان. ومكثوا هناك زمناً، وجاءتهم الأنباء الكاذبة بارتداع قريش عن غيها، ودخولها في عز الطاعة، ونبذها لمذلة العصيان والخذلان، وأن

أولئك الذين أمسكوا بهم بالأمس وراحوا يجلدونهم بسياطهم، ويكوونهم بمحميات حديدهم، ويطعنونهم بحرابهم، ويذيقونهم وبيل العذاب ـ قد اصبحوا موطن حب وإكرام، وحضن عطف واخاء، وسوف لن يعودوا إليهم إلاّ لتتصافح الأيدي، وتلتحم الأعناق في لقاء وادع باسم ودود، ولسوف يرجون منهم الصفح والغفران، ولسوف يصفحون ويغفرون، فهم أهل القرآن، وهو منبع الخلق العظيم، والسجايا الكريمة. ودبّت نشوة الفرح في تلك القلوب الحزينة، واندفع أهلها يشدون رحال العودة إلى ديارهم، حتى إذا وصلوها وجدوها على ما تركوها عليه، تعج بالشر، وتمور بالثبور، فمنهم من تحصن عنهما بالجوار، ومنهم من احتوشته أفاعي العذاب. ويأمر النبي الركب المستضعف كله بالهجرة، وأميره هذه المرة جعفر بن أبي طالب.

إن أمر هجرة جعفر وهو من ذوي المنعة، ومن سواه من أهلها يفتح أبصارنا على حقيقة جليلة هي بعض فيض الحكمة في عمل القائد العظيم، فجعفر رجل نبيه حاذق، وبصير مدرك، سيقود جمع الناجين من سعير الانتقام، ويكون فيهم معين خير وضياء، يقيم أودهم، ويصلح شأنهم، ويركز فيهم معنى الإيمان في أرض هي موطن دين جبّه الإسلام، وله فيها دعاة ومبشرون، وسيجهد جعفر نفسه أن يدخل في فكر الملك العادل سداد خطه، ونزاهة قضيته، وسمائية دينه وعقيدته، فهو على منهج سمح، واضح المعالم، متين الأركان، هو للفكر اصالة

وعافية ونهوض، وللنفس لطف وسكينة، وللقلب حياة وعمران، فهو زاد الفكر والنفس والقلب، فيه نبع ريّها، وبه تجد غاية رضاها، ومنتهى أمنها وسلامتها.

وإن لم يكن بهذا السبيل إلى الملك، فلن ينقطع به الطريق إلى رعيته، يريهم حكم الله الحق وبرهانه الساطع، فتميل بهم قلوبهم إليه، فيتم له الفتح العظيم بهدم معاقل البعد عن الهدى في تلك القلوب، واكتساح بعض قلاعه في تلك الديار، وقد يستطير أمر الإسلام هناك وتعلو كلمته، فينال النبي غايته في أن تكون أرض الأحابش مهداً لدينه، وحصناً منيعاً له، وصرحاً يقف على هامه ينير الأجواء بعد إذ كدرت صفو انطلاقه شراسة قريش العاتية. وتمضي هذه الجماعة الكريمة المهاجرة لربها ودينها، قوم لحفظه في نفوسهم من سطوة العابثين، وقوم لبثّه في بعض أرض الله. وها هي تنقل خطاها على الطريق إلى غايتها، حادي ركبها يهزج، وهي تردّد خلفه:

الأهل والأوطان فراقهم صعبُ

لكنه الإيمان فداؤه القلبُ

والروح والأبدان فليقبل الربُّ

فليقبل الربُّ

وتصل الحبشة، ويقر قرارها معززة، لا ينالها سوء، ولا يصيبها أذى، وإنها لتقول:

(قدمنا ارض الحبشة فجاورنا خير جار، أَمِنّا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع ما نكره).

ويعلم أبو طالب حامي الإيمان ودرعه الوثيقة بما عليه أبناؤه من العزة والمنعة في ظل النجاشي الطيّب، فيرسل إليه طامعاً في إسلامه، مبشراً إياه بدين الحق، ناصراً ابنه جعفراً في شأنه:

تعلّم مليك الحبش أن محمداً ... نبي كموسى والمسيح بن مريم
أتى بالهدى مثل الذي أتيا به ... فكل بأمر الله يهدي ويعصم
وانكم تتلونه في كتابكم ... بصدق حديث لا حديث التراجم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... فإن طريق الحق ليس بمظلم

وتهبّ قريش تلاحق أهل العقيدة مخافة أن يقرّ قرارهم، ويذيع أمرهم، ويجد له الحصن المنيع والظل الآمن، ولابدّ بعدها أن يسري إلى كل الأرجاء، ولن يلبث أمامه أمر قريش إلاّ حيناً ثم يصيبه الفناء. وترسل خلفهم من دهاتها عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ليغريا ملك الحبشة بهم، ويسقطا ركب الرسالة في عينه، فيذر المهاجرين وحكم قريش تقضي فيهم بما تحب.

وحين يطرق نبأ المكيدة سمع ابي طالب يهبّ على المألوف من شأنه عند كل ملمة تهم بالإسلام وأهله من وقوفه في وجهها أسداً باسلاً بحسامه أو كلامه، ويروح يسفه قريشاً ويعيبها بما أقدمت عليه، ويمزق

حظها من النهى كل ممزق، ويطلق العنان لبلاغته يصلى الظالمون لظى سخطها:

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر وعمرو وأعداء العدو المقارب
وهل نالت أفعال النجاشي جعفراً وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلّم ابيت اللعن إنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأنّ الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وإنك فيض ذو سجايا غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقارب

وسار ابن العاص وابن أبي ربيعة وقد حملا أوزاراً من هدايا قريش إلى النجاشي وبطارقته، لعلها تفك بها من حد العزم على إيواء اهل الإيمان، وتهد حصناً من الحماية في قلب الملك العادل الذي لاذ به الهاربون، وعساها تغريهم بالنشب فيسخون بمن آووا فاتحفوهم باللطف والكرامة، ويجودون بمن أحضنوا عليهم وحفوهم بالأمن والسلامة.

وانطلقا إلى البطارقة فبكيا عندهم، وذرفا من الدموع الكذوب ما لانت له القلوب، ووضعا أمامهم من هدايا قريش ما يكون ثمناً للنصرة، فوعدوهما أن يكونوا لهما عند مليكهم عوناً وسناداً، بهما يصولان وإليهما يفزعان.

ودخلا على النجاشي بوجه كاسف بدت عليه غبَرة الآلام والتهمام، فوضعا عند قدميه تلك الأوزار من الهدايا، وسقطا أمامه برئياً خشوع

وانكسار، وأظهرا له من التذلل ما لم يألفه حتى من أشد الناس اعظاماً له، وكان نداؤهما ثاكلاً محزوناً، فيه رنة التفجع وآية التوجّع:

(ايها الملك انه قد ضوى منا إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوك بدين لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك منهم اشراف قومهم، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه).

ويعلو صوت واحد مرسوم من أعوان الملك الحكيم، يعضدون الماكرين فيما بذلا له المال والجهد و الملَق، وتأبى سجية النبل أن يميتها الاغراء، وينآى عن أن يذال طبع كريم، ولا يرق اللبيب لنداء قريش على لسان بعيثها، ولا يذل سلطان عقله لهذا الزحف الشديد من الخداع والتزيين، ويرتفع صوته امام الحاضرين:

(لا والله اذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم).

ويدعو النجاشي الثلة المؤمنة إليه ليرى أمرها وبرهانها، فمن خفت موازينه فذلك من حقت عليه كلمة الخذلان.

وفي الطليعة كان جعفر، في نفسه عزم الإيمان، وعلى وجهه جلال الهدى، وفي عقله لا في يده صارم الحق والصدق. ويدخلون على ملك

الأحابش فلا ينحنون، ولا يسجدون، ولا يخشعون، ولا يضرعون، فهبت في القوم عند الملك رياح العجب المائر، وشبت في نفوسهم نيران الحيرة الضارية، وراحوا يتقاذفون بالابصار، وصاح صائحهم:

(ما لكم لا تسجدون للملك؟!).

ويسرع ابن العاص بكيده طلباً للفلج في هذه الحال الثائرة، ويسعى إلى قلب الملك ليفجر فيه سعار الغضب على الذين لم يسجدوا له، ولم يخروا إلى الأذقان ضارعين، ويقرن كلامه بما سبقه:

(الا ترى أيها الملك أنهم لم يسجدوا لك؟!).

ويأخذ الصوتان ببعض نهى الملك إلى دنيا الاستغراب، فهل يعنّف هؤلاء الذين دخلوا بلاده نادّين طلباً للحماية والاعزاز على أن لم يسجدوا له، وقد هرب بهم عن الذلّ اباء عظيم، وهو من اجلاله واعظامه؟!، أم يدعهم وشأنهم وإن استخفوا بسنة قامت له، وجرحوا قلوباً في أعوانه آلمها أن يستهان بتلك السنة حيناً من الأحيان؟!

وتنهدّ في الرجل أركان بيانه فلم يحر نداء، ورفع رأسه إليهم، وفي وجهه من قلبه رغبة جموح في شيء في هذا الأمر.

وينبري الحق قائلاً قولته ولو كانت ثقيلة مرة نابية في نفس سامعها، فلا معدى له عنها، فليس هو بالذي يخاتل أو يصانع، ويطلقها جعفر جريئة شامخة تفيض بالصدق والحزم:

(إنّا لا نسجد إلاّ لله تعالى).

وينهمر في أحناء الملك من علياء الشموخ لدى هؤلاء عجب كبير، ويدهمه من ترفعهم عن السجود لمثلهم حيرة آسرة، وإنه ليكاد يدرك من هذا وحده صدق ما هم عليه من الأمر، وسداد ما ركنوا إليه من الدين، وجلال ما هم فيه من الشأن. ويلتفت إلى جعفر وقد عرف فيه كبير القوم ولسانهم، فيسأله عن حال هذا الأمر الذي ناؤوا له بالصعاب، وذاقوا له مرارة الأوصاب، حتى فارقوا الأهل والأوطان من أجله، وهجروا له الأنس والبهجة، ونأوا لدعته وراحته عن الدعة والراحة في قلوبهم وفعالهم.

لقد قال له:

(ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟!).

ويجيبه ابن أبي طالب بكلمة متينة مشرقة، لا يشوب صفاءها قتام، ولا يراود اشراقها ظلام، ولا يمازج عزمها وهن، ولا يخالط صدقها خداع.

لقد قال للملك:

(أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فبعث الله فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فأمرنا أن نعبد الله وحده، ونخلع ما كنا نعبد من دونه من

الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نظلم عندك).

(وهل عندك مما جاء به عن الله من شيء؟).

(نعم).

(فأقرأه علي).

أنظر هنا عظيم النباهة في جعفر، وبالغ الفطنة عنده، وحكمته النافذة في سعيه إلى القلوب، وكيف لا يكون كذلك وهو سلالة الحكمة والبصيرة والتدبير، وابن مؤمن قريش حكيمها (أبي طالب)؟، لقد اختار للملك من الوحي المجيد ما فيه ذكر مريم والمسيح واطراؤهما،وهما سنام عقيدة الملك وأتباعه، وموضع تقديسهم وتعظيمهم، حتى بلغ قوله سبحانه عن لسان عيسى :

(والسلام عليّ يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أبعث حيا).

وهتنت على من في البلاط سحائب الخشوع، وسرت في أنحائهم رعدة الرهبة وهزة الاجلال، وأحاطت بهم كثافات العجب والدهشة، إلاّ شيطاني قريش فإنهما لاذا عن ذلك في كهف الغواية والعمى فلم يبصرا

ولم يسمعا، وانتفض النجاشي من بين الجمع الذاهل، والتفت إلى رسولي قريش فرمى الهدايا في وجهيهما، وقال لهما بفورة من الحنق عليهما وعلى من أرسلهما:

(إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون).

وابتهجت صفوة الهدى في حنايا الغربة بالدعة، وهنئت بطيب الحياطة والتكريم، ونعمت في ظل حماية وأرف ظليل، واستراحت قريرة العين، فما لكيد قريش إليها من سبيل.

ويخرج الوغدان صاغرين بخيبة طاغية، وقد طحنتهما رحى المذلة، وطوتهما إلى الأعماق مرارة المهانة. ولكن ابن العاص وقد مزق جعفر كل حبائله أبى إلاّ أن يثأر لنفسه الناكسة، وقلبه الملتهب بسعير الخزي، ومكيدة قومه التي وضعها جعفر تحت قدميه فبلاؤها زاهق، وقد بيّت في نفسه من حينه هذا شيئاً يميت به صلابة الملك في إيواء القوم، وحمايته لهم، ويضرم لديه لهيب الحقد والغضب عليهم، فينتقم منهم بسطوته أو سطوة أهلهم حين يفتح الباب لهم إليهم بطردهم من كنف حمايته وظل رعايته.

وأمضى ليله رامقاً مسهّدا، وقد نآى بالنوم عنه بؤس موقفه في صياله على خصمه، وغلبة جعفر وجمعه، وفوزهم بالحظوة والمكانة والاجلال

عند النجاشي وأعوانه، وليس بعيداً أن ينال دينهم ذلك، وهو ما سعت قريش لأن تحول بين محمد وبين أن يظفر به.

و ما أن أطلّ الصباح حتى قام يسعى إلى البلاط الذي خسر فيه جولة الأمس بصارم حديد حسبه بتاراً، وسوف لن يجد العدو من سبيل إلى النجاة من فتكه إلاّ الاستسلام. وسجد عمرو للملك، وتملق له، وألقى على مسمعه:

(أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه).

ويرسل النجاشي إليهم، وقد كدّر صفو حبه واجلاله لهم ما سمعه من عمرو، وأثارت فيه عاطفة العقيدة التي صدمت بالذي أتاه من معين الدهاء والخديعة ـ قتام التردّد في ايواء من يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، وفتح أبواب العيش المطمئن أمامهم. وما كاد يستقر بهم مجلسهم عنده حتى سألهم عما كاد أن يغيّره عليهم، ويخلع عنه الوجه الذي كان ينظر به إليهم:

(ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟).

ويصمت الجمع وقد شبّ في أحشائه ضرام الحيرة والذهول، فما الذي يجيب به الملك وهو يعلم أنه يقول بالأقانيم الثلاثة في عقيدة التثليث (الأب والابن وروح القدس)، فهو يؤمن بربوبية عيسى وبنوته لله، وليس فيما جاء إلى محمد من ربّه إلاّ أن عيسى عبد من عباده، فلا

ثالوث، ولا ربوبية، وان عمْراً كان ذكياً بارعاً في الدهاء حين قام يصاولهم هذه المرة بصارم هذا الأمر المستصعب؟

ويستدير الركب المؤمن ببصره إلى جعفر، فهو الذي رآى فيه بالأمس رائد الرهط المسلم الذي كسر عنه أطواق المحنة العاتية، والطود الراسخ الذي استمسك في ظله أمام الزعزع الضارية، وخرج به من الشدة العاصفة ظافراً يطفح جبينه بنشوة النصر وبهجة الظفر، ويعرف جعفر وهو ابن حكيم قريش أن الموقف المعضل يرنو إليه بطرف الاستغاثة فهو وحده الذي يعطي المواقف حقها من التدبير الرشيد الصائب، ويندفع سيلاً دافقاً يخمد هذا اللهيب المدوي في الأفئدة الطاهرة، ويودي ببواكير الهول من الكره المستعر في قلب الملك النبيل، ويحتضن ببره واحاطته ذلك الحب الرافع الكبير الذي فاضت به نفس النجاشي على جلال الإيمان المشرق في هذه النفوس اللائذة بحماه من لهوات الأذى. ويقول ابن أبي طالب:

(نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول).

وراحت عيون البشر تنشر بردها وطيبها في نفس الملك والنفوس الواجفة عنده، فخوى الضرام، وذاب السعار، وذوت سراء الداهية عمرو، ونفض يده من حبائله، وتيقن الخيبة، فارتدى ثوبها، وآب محسوراً مهاناً.

ولم يفتأ جعفر وقد فتح الله له باب القرار في الحبشة، وحفّه بود ملكها يبث في الناس مفاهيم دينه، ويفتح بصائرهم التي تكثفت عليها دياجي الأوهام على نور الحقيقة في رحاب الإسلام، فتدكدت في نفوس الأخيار منهم هيمنة تلك التفاهات، وذاب زيفها، وانقشعت غشاواتها، وباتت تتطلع إلى رحاب الحق والصدق والحكمة التي مهد لهم سبيل العروج إليها داعية الهدى بينهم، وعلمت أن ما كانت عليه هو صنعة الانسان، وعمل أهوائه، وبدعة رغباته، وأن ما بدأت تخطو إليه هو لطف السماء وفيض رحمتها، ولو لم يكن كذلك لما ألفت له عندها الترحاب والاكبار والحب الخطير في العقل والقلب والضمير.

ويتأجج الحماس لدى رهط من هذا الجمع الذي حنف عن ضلالته إلى رؤية رجل الخير والرحمة الذي وقف على منهل الهداية يسقي ورّاده رحيق النور، فيداوي به ما في نفوسهم من أسقام الظلمات وعلل الضلالات، ليعيدها حية الفطرة، ناهضة البصيرة، تحب الحق، وتهفو إليه، وتسعى نحوه حتى تكون من أهله. ويلح الرهط على من أجرى ينابيع الهدى في دنياه أن يذهب به إلى الرسول الكريم، فإن عندهم ـ مما لم تمتد إليه يد التبديل والتغيير من وصايا المسيح وتعاليمه ـ أنه بشرهم بمقدم نبي عظيم بعده، يفوقه وغيره من الأنبياء فضلاً عند الله ومنزلة لديه، وقد دلّهم على صفاته وسجاياه وبعض شؤونه وعلاماته، فودّوا لو أنهم رأوه عياناً، فيتأكد لديهم أنه هو من فاح بالأمس من بين شفتي ابن

مريم طيب ذكره بالبشارة به. وشرع الوفد في السفر البعيد المضني على متن الخضمّ المثقلة أحشاؤه بالمخاطر، وليكن ذلك السفر طويلاً ثقيلاً مضنياً، فكل ما فيه هيّن يسير ما دامت غايته معرفة الحقيقة وهي غاية سامية كريمة، إن لم تكن أكرم الغايات وأسماها. ويصل الوفد وفي طليعته بعيث النبي إلى دياره، وحدّق طلاب الخير في محمد، فما أشد ما تنطبق الصفات (دليل رسول الأمس) على رسول اليوم وخاتم النبيين، ولو لم يكن ثمة علامات وصفات فإن جلال محمد لينطق بصدقه، وإن شريعته لتفوح بعبير صوابه وسداده، وتعلن بلسان التسامي والعظمة فيها أنها لطف السماء للأرض الخاوية، وهاطل الخير للحياة الذاوية. وتمّ للوفد ما أراده، واكتمل فيه صرح إيمانه، وها هو يهمّ بالعودة إلى بلاده بشيراً لقومه، وفي ضمنه جعفر، فإن ما ألقاه القائد على عاتقه من ثقل مهمته (البلاغ) لم يبلغ غايته الجليلة بعد.

وتتفجر قريش مرارة وغيظاً لجاهليتها التي أوشكت أن تقف على عتبة الانهزام، وللإسلام الذي وجد في غير مكة من يؤمن به ويناصره، ولخطوب ضلالتها التي لم تفلح في قتل انطلاق الحق وذيوع أمره، فإنه للنور، وأنى لقريش أن تمسكه بقبضة يدها، أو إن تعصب أبصار الناس حتى لا يروه، وتطمس على قلوبهم حتى لا تعشقه، وتهيم به، وتهطع إلى الركون إلى ظلاله. وسعت قريش نحو رجال الوفد الذين وجدوا

غاية الخير في مسار محمد، وراحت تعنّفهم، وتحط من شأن نهاهم، وترميهم بالسفه وسوء الرؤية:

(ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال).

ولم يعرها الركب أذناً صاغية، ولم يرمقها إلاّ بطرف الازدراء، ولم يعبأ بذمها وتسفيهها وجافي خطابها، وكان جوابه لها:

(سلامٌ عليكم لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا).

وركبوا طريق الاياب، حتى إذا ما همّوا بالمسير أنزل الله سبحانه فيهم من قرآنه شاكراً لهم سعيهم، ممجداً موقفهم، مبشراً إياهم بالخير والكرامة والرضوان بما أحسنوا إلى أنفسهم باتباع الهدى، وبما تجشموا من العناء لأجله:

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، أولئك الذين يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين).

فيا له نعيماً فائقاً، وخيراً رافعاً!، جنته يدا جعفر، فكان له منه النصيب الأعلى، وفاض منه على الركب معه منال جليل. فبوركت يا

بيت أبي طالب من بيت ما ضمّ إلاّ طيباً طاهراً، و ما انفتح الا عن أغر، كريم، عابق الانحاء، مشرق الأرجاء، آبٌ تكفل محمداً اليتيم أحرص الكفالة، ودلّه على الراحة خير دلالة، وأحضن عليه أميناً على وحي الله أحسن الاحتضان، وحفّه بالبذل معرضاً نفسه للغيظ والبأس والشنآن، وفتية فيه راحوا على نهج أبيهم وبأمره يخوضون له أهاويل المفاداة وفي موج التضحيات، غير عابئين ولا ناكلين، بل مستصبحين باليقين من غرة الفجر المبين، وأم أنْست بحنانها محمداً فقد أمه في صغره، تضنّ بلوعته، وقد آوته إلى قلبها الرؤوم في يفاعه وفتوته، وساندته باسلامها وبرها في نبوته.

احبولة الحصار

ضاق الفسيح بقريش، ودارت بها الأرض الفضاء، وراحت تتخبط في متاهات الحيرة، وقد أذهل لبها ما تراه من مسيرة الرسول الصاعدة، وانتكاس كيدها في صده عما يبتغيه من تحرير الأرض من عبودية غير الله. ولم تلف عندها من أفانين الكيد إلاّ أن تنبذه وذويه، وترمى بهم في قعر المقاطعة، فلا تأخذ منهم، ولا تعطيهم، حتى تخضد شوكتهم، و تخمد ريحهم، ويخفت اوار عزائمهم، فيرتدوا على أعقابهم، أو يموتوا في طوايا الحرمان. ودوت صرخاتها في نواديها باسم المقاطعة والحصار، ولم تنفض جموعها حتى كانت الصحيفة قد خطّت وعلقت على ظهر الكعبة، وفيها أن تكون كل أطراف قريش يداً واحدة على بني هاشم والمطلب، وحرباً عليهم، لا يهادنونهم، ولا يقبلون منهم صلحاً، ولا يتعاملون معهم بأي لون من التعامل، ولن يحل هذه العقدة ألاّ أن يسلموا محمداً إليها تفعل به ما تريد. وحين يعلم سيف العقيدة وحصنها الحريز أبوطالب بما فعلت قريش من أمر المقاطعة يمضي على عادته يسفهها على فعالها المخزية، تركاضها وراء الشيطان، وعدم ارعوائها عن غيها وتيهها، وعلى تماديها في طغيانها، ويروح يسخر منها مسفهاً ما ارتجته من حصارها عليه وذويه:

يرجون أن نسخى بقتل محمدٍ ولم تختضب سمر العوالي من الدمِ

على ما مضى من مقتكم وعقوقكم وغشيانكم في أمركم كل مأثمِ

وظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى   وأمر أتى من عند ذي العرش قيّمِ

ويمضي يلهب أحشاءها بنار هجائه الأليم، ويصب استخفافه بها وبالذي تنجبه رعونتها من الغلظة والعنت ـ حميماً على رأسها، ويسمعها صيحته عالية باقية، أنه مع الهدى الذي جاء به ابن أخيه فاتبعه، واعشبت أنحاؤه بنوره، وهو له ناصر صابر حتى يعلي الله كلمته أو تنشب فيه المنية أظافيرها. ونسمع صادحة المجد تتغنى بشعره، وتهزج به باكبار واعجاب:

ألا أبلغا عني ذات بيننا   لؤيّاً وخصّا من لؤي بني كعبِ

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً   نبياً كموسى خطّ في أول الكُتْبِ

وإن عليه في العباد محبة   ولا حيف فيمن خصه الله بالحبِ

وإن الذي رقشتم في كتابكم   يكون لكم يوماً كراغية الزغبِ

حتى يقول:

فلسنا وبيت الله نسلم أحمدا   لعزّاء من عض الزمان ولا كربِ

ولما تبنْ منا ومنكم سوالف   وأيدٍ أترّت بالمهندة الشهبِ

لقد اعتملت في قلبه شتى الظنون عما تكنه قريش من نوايا المكيدة بمحمد، حتى لقد خالجه من جسيم خوفه عليه أن قريشاً وقد ضربت عليه وآله طوق الحصار، وأبعدته عن ساحته وعزلته عنها ـ ستبعث من شياطينها من يستعين بستر الليل إلى الشِعْب مشمراً أذياله، شاهراً سيفه، مرهفاً حسه وبأسه، حتى إذا عثر على محمد سقى سيفه الباتر من دمه،

وأطعمه من لحمه، وعاد يحمل إلى قريش البشارة بأعظم فوز وأروع نصر، وغاية ما تتمناه وتبتغيه، فصار ابن ابي طالب إذا ما جن الليل، وأرخى سدوله، وألبس من في أحشائه ثوب العتمة ـان يأخذ محمداً من فراشه الذي أعده له على مرأى الناس وقت الأصيل، لينام في مكان غيره، تاركاً ابنه علياً مكانه، ويلقي علي بنفسه على فراشه، ويستسلم للمنية المتوقعة .

ويمضي أبوه يحثه على الصبر والثبات في رحاب الذب عن رائد الخير، وفي المحاماة عن دينه، وتنطلق قريحته تهدهد على علي المستسلم لارادة النصرة طاعة لأبيه، وحباً لنبيه:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى   كل حي مصيره لشعوب

قد بذلناك والبلاء شديد   لفداء الحبيب وابن الحبيب

لفداء الأغر ذي الحسب الثاقب   والباع الكريم النجيب

وشددت قريش النكير في مقاطعتها، وبث عيونها على من يخالف بنداً منها حتى تعنّفه، وتفضحه في محافلها، وتسومه الخسف، ولو شاءت بطشت به، ورغم ذاك كان هشام بن عمرو يسعى إلى فم الشِعْب ببعير أثقل كاهله بالطعام، وينزع خطامه، ليدعه يمضي وحده إلى رهينة الطوى، عسى أن يسد لهم بعض خلّتهم وشيئاً من ارماقهم، ويسكت لهم صراخ الرضع والصبيان من سغبهم، وقد بات يسمع من مكان بعيد.

ولقد لقي أبو جهل يوماً حكيماً ابن حزام وقد حمل على غلام له طعاماً قصد به عمته خديجة فأخذ بتلابيبه، وشدد القبضة عليه، ومضى يجره صارخاً فيه:

(أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة).

ولم ينفع معه عتاب أبي البختري له ولومه إياه على منعه حكيماً إيصال الطعام إلى عمته، وأعضل أمر جموحه، وكان عليه أن يذوق جزاءه، وقد تعود أن يذوقه عند كل موقف مشين يقفه من الإسلام، حتى ولو على يد أبي البختري وهو من أهل ملته، فلقد ضاق ذرعاً بحدته مع حكيم، فعمد إلى لحى بعير فشج به رأسه وجلد به الأرض، ووطأه وطئاً شديداً، وفيما هو منشغل بكربه كان الطعام قد دخل الشعب ووصل إلى أهله.

الأرض تغفو في غياهب التيه، وترزح تحت أثقال الضلالة، وتمور في سعار الغي، والناس قد أشربوا حب العمى، فراحوا يتخبطون في مفاوز الشقاء، يردون حياض الشر بالبؤس والتعس، فلا يصدرون إلاّ بالسوء، قد ضاعت عن بصائرهم كل المثل، وتوارى عن حلومهم كل معنى خيّر للحياة، فهم في دياجير مطبقة، وظلمات خانقة، ومتاهات موبقة، فليس في الدهماء من ضياء، ولا في المتاهات من دليل، ولا في الهمود من صرخة، إلاّ هؤلاء الاربعة في

هذا الحصار المقيت، وقد أبت الدنيا الحيود الخؤون إلاّ أن تنبذهم عن ساحها إلى غمرات الضيق، وتنأى بهم في طوايا الحرمان عن هنائهم، وإنك حين ترى أبا محمد يحف به ابو طالبوعلي وخديجة وإلى جنبه محمد وعلي، هذا يصدح بأناشيد السماء، وهؤلاء يعرّضوان انفسهم ذبّاً عنه لمعرة البلاء وسطوة السفهاء ـ تعلم أن هذا الوجود الصغير القابع في هذه الزاوية الضيقة من زوايا الأرض، وقد اشتجرت عليه حراب الغيظ الضلّيل تهمّ به أسوء الهموم ـ هو وحده الناموس الفذ الذي سواه لطف الله على عينه، واصطنعه ضحية للبر الشامل، وقرباناً للسعادة البشرية، ومنجاة للعباد على هدى المعبود، ودلالة أسمى لرهائن الحيف إلى عالم بهي ندي رضي هو عالم الخلاص.

إنه ذلك البيت الزكي الأرفع الذي شاء لزكاته أن يذوب في مسار الالتزام إلى حد الاعتصام بفرض التزكية، واثارة دفائن الالباب والفطرة لهذه الحشود الهائلة المنبثة في هذه المعمورة المحبوة بالخلافة والعقل والاختيار، لتستحيل الحياة فيها جنة تغمرها الأنوار والطيوب بالعقول السديدة، والسجايا الحميدة، والفعال المجيدة.

معين البدور

من حقيقته السماوية المصطفاة التي خصها الله بروعة الجلال.

ومن روحه الأسمى التي تعبق بالعبير الوتر في ذروة الجمال.

ومن فؤاده الفذ الذي يميس بالبهاء والعلا في سبحات (دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى).

من مشيئة الله له أن يكون سيد الأولين والآخرين اماماً للنجباء.

من عزّه الفريد الموصول بالعروة الوثقى لا انفصام لها ولا فناء.

من كل ذلك تجلت لحفظ امتداده وإفضاله نفحة شذية من علياء كماله، وشعشعت من روحه الندية النوراء في أزهى مجاليها شمس ترش اسباطه على الآفاق من أبهى معاليها.

وانداحت من مجد محمد الأثيل أفضية الأمجاد في أبنائه الوارثين، أفنان تلك الشجرة الطيبة التي ضربها الله في القرآن مثلاً للمتوسمين.

إنها الزهراء البتول: بسمة سنية ما سطعت إلاّ من ثغر السماء، وهلة نيرة ما التمعت إلاّ من وجهها، وعبقة زكية ما تضوّعت إلاّ من رياضها، ونطفة زكية ما غرست في صلب المصطفى إلاّ من ثمر الجنة في رحلة الاسراء، ثم قرت في بطن خديجة الكبرى، لتخرج للدنيا خلقاً سوياً يزهو ببهاء الخصيصة السماوية، ليقلدها أبوها الصدوق وسامها الفريد (الحوراء الانسية).

هنا لك في شدة الضيق، وكثافات العناء، وسورة الخطوب والكروب التي تلبدت بها ساحة الرسول، وهو لايعتم ينفتح على الحياة بحبه وحنانه، وهي لا تألو جهداً في أن تنفتح عليه بالعنف والشراسة ـ في كل ذلك ضحكت المشيئة العظمى لرسولها الكريم الذي عصفت به

رياح التجهم، لتمسح بيدها الآسية الرؤوم على فؤاده المضنى، وتفيض في نفسه معين البشر والحبور، فهذه خديجة قد أوشكت مدة حملها أن تنقضي، ولقد ألفت فيه في أيام حصارها البئيس أنيساً مسعداً بأمر عجب نسيت له أو كادت كروبها وخطوبها، فجنينها يحدثها من بطنها، ويسمعها النبي تتكلم وليس في البيت أحد سواها، فلا يجد للحيرة في أمرها سبيلاً إلى قلبه، فهو ما عهدها إلاّ واثقة النهى، بالغة الصواب، ثاقبة البال، لا تتكلم إلاّ حيث ينبغي، فهي عن فضول القول بمنجى ومفازة، وحين يسألها النبي عن سر ذلك تجيبه:

(إن الجنين الذي في بطني يحدثني).

ولا يستغرب البعض من المتعلمين هذا الأمر اليوم، ويحاول أن يصنفه في باب (الحديث عن بعد) أو (التلبثاني)، حيث هو حقيقة علمية أثبتها الواقع العلمي المتين. ولا يذهل الرسول، ولا تأخذه الدهشة، فهو يعلم ما لهذا الجنين من جليل شأن، وخطير مكانة، وجسيم غاية، فما هو إلاّ فلك رسالي من الكمال والجلال تدور في آفاقه في غد بدور الامامة حول شمس النبوة تشع بأنوارها وتديم عطاءها.

ولدت فاطمة فأشرق بحبوره قلب محمد الذي ما ذاق طعم الهناء مذ أوكلت إليه المشيئة الأسمى تحرير الانسان من كبول الالهة الزائفة، وكسر أغلال الحماقات، ولا أحس بالحبور يدخل دنياه من قريب أو

بعيد. وتهللت أسارير خديجة الصابرة، ورأت وجه تلك الروعة التي ملكت عليها قلبها بالأمس وحيّرتها.

وكأنه كان أمراً من التدبير أن تنطلق من فم العاص بن وائل كلمات نابية تثير حفيظة السماء، لتمقته في ناديه على وجوه سُمّاره، فلقد قال لقومه حين أعيتهم الحيل في أمر محمد:

(دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره، واسترحتم منه)

فيرد عليه الوحي وقد أطلت فاطمة بوجهها المبارك الوضاء، مبشراً النبي العظيم بالوليد الكريم ، معين الصفوة المباركة من بنيه، وحماة رسالته من اسباطه، ورواد الأمة من بعده على دربه:

(إنا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر).

إذن لن يندثر محمد، وما هو بالمنقطع ذكره، وقد ولدت له (الكلمة الطيبة)، فاطمة البتول (كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.)

وهكذا كانت فاطمة، عبقة اللطف من صلب الرحمة المهداة، وهي الأنثى الوحيدة من ظهر الرسول الخاتم، بشهادة الفعال في سيرة العصمة، وبينات الكلمات التي طفح بها الاهتمام النبوي السديد بهذه البضعة المطهرة مما لم تنل أخواتها المزعومات معشاره، ولا شيئاً منه أو من مثيله أو ما هو دونه، مع أن النبي هو من علم الأجيال في مدرسة مثله

الرفيعة ـ مبدأ المساواة بين الأولاد في البر والعواطف وحتى النظرات، بحكم أصول العدل والعقل وعلم النفس، ففاطمة من دونهن على لسانه هي سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء أهل الجنة، ومن رضاها قرين رضا الله ورسوله، والمطهرة من الرجس بتحديده المصداق لصريح التنزيل، وهي المتفردة بالسمو النسائي الرضي في مهمة المباهلة، والمتوحدة بكرامة التزويج بإرادة السماء ومشيئتها، والمخصوصة بالبعل السديد، والنسل الرشيد، والدور الفريد، وليس لواحدة سواها ممن وسموهن بأنهن بنات النبي وما هنّ إلاّ ربائبه- شيء من هذه الموائز العلية، والمواهب السنية، والنياشين البهية، وما ذاك إلاّ لأنها وحيدة المصطفى من صلبه، وحبيبة الرب من مقرباته، ومختارة المشيئة الأسمى للعطاء والفداء، امتداداً لهدي السماء في خاتم الأنبياء.

(وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة).

ولو كان الأمر غير ذلك فلماذا كان موقفه من إناثه متفاوتاً وهو الولي الأمين، وأعدل المقسطين، بعصمة ربه الذي حباه بلطفه وحماه، وسدد على طريق الحق والرشد خطاه؟!.

محنة الذبول

الروضة المعطار الضحوك التي أنس إليها الهزار، ووجد فيها بهجته وانشراحه وعزمه على الشدو والتغريد ـ قد طفّلت شمس روائها ونضرتها، وراح داء الذبول يدبّ فيها، ويكثف الغمام على وجهها

الصبوح حتى ذوت، وغدا ذلك العندليب الذي تنعم في أحضانها، وعرف فيها حبوره ودعته ـ نائي الدار عن أنسه ورفاهه، جامح الحزنن، ثائر الثكل، مسعور الأسى، عظيم الالتياع، وأمسى ذلك الصاحب الخالص الود، الثابت الخطى في دنيا الاخاء على شدة ما تكنّفها من أوصاب، والذي أعطى رفيقه ما ابتغاه عنده من الطَول والعون على درء طوفان الآلآم، واجناد الأتراح ـ مستباح الحمى لسطوة لم يجد سبباً إلى ردها، ولا سبيلاً إلى صدها، فانهدّ وهوى، وغدا قرينه وحيداً في دربه، عديم الخل، مفرداً بين المردة والغيلان، فيرنو بعينين دامعتين ملؤهما الأسى والنجوى إلى رفيقه الراحل، فلا يسمع صوتاً، ولا يرى حراكا.

لقد صار ذلك الحضن الناعم الأمين نهباً لبأس الخطب وسطوة الكرب، قد اعترته النوازل، وأناخت به الحوازب، فذوى ربيعه الفينان، وسكن نسيمه النشوان، وأضحى الصادح بكلمة الله في أفياء بسماته ـ في هاجرة الغم والشجو بعد ذلك الظل الظليل من ربيع القلب الشاعر الودود .

ماتت خديجة، فعصفت رياح الاتراح في قلب الرسول الذي أمسى بمصابه بريحانة البِشْر، على حالٍ من اللوعة والهم لا يرقى إلى وصفها بيان، وكان عامها الذي قضت فيه عام الحزن على نعت النبي الملتاع.

وشاء الله أن يقيّض له بدلاً عن تلك الروضة روضة طارفة حالمة، لم تشهد الحياة إلاّ من زمن قريب، هي كل سابقتها سحراً وأريجاً وبهاءً

وأنسا، وهيأ له عوضاً عن ذلك الرفيق رفيقاً آخر، إن كان الأول يسمو عليه بمدى الزمان فليس هو بالذي يربو عليه في معاني الصحبة، وأبدله بذلك الحضن حضناً جديداً يمور بالدفء والعذوبة، فكأن محمداً لم يصب بالخطب الأليم، وكأنه لم يفقد روضاً وصاحباً وأنيساً، ففاطمة الصبية الطيبة الطهور حلت مكان أمها،ووجد محمد عند هذه البنت البتول ما كان يجده عند أمها الراحلة، وكانت حقاً (أم أبيها) كما وصفها أبوها، وكانت تدأب في أن تقلد امها في احتضان القلب المضام بذلك الأنس الفريد الذي لابدّ له منه مادام هو البشر الفذ الشاعر الحساس المفطور على أن يأنس بالحب والطهر والوفاء، وأن يحتاج إلى الروح الرهيفة، والشعور الهفهاف، والقلب العابق بطيب الود والصفاء.

كانت فاطمة تجهد على صغرها في أن تلازم أباها حتى في تطوافه في رحلة الدعوة في باحة البيت العتيق، أو طرقات مكة وسككها، أو مضارب الوافدين لزيارة الكعبة، ليواجه العنت والأذى من جفاة قريش وعتاتها، وحيث لا تستطيع دفع المكروه يكون ردّ فعلها دمعة ساخنة، وعيناً تشخص بها إلى السماء بضراعة البراءة الحالمة التي لا يعلم إلاّ الله ما ضمنت عليه من المعاني، وهي تسأل الله العون للمظلوم، والنكال للظالمين.

أفول المكيدة

وآن لهذا الربيع الذي حبسته الصروف في المكان الضيق كَسُمّ الخياط، وحرمته فسحة الدنيا المنداحة، وإن لم تكن نالت حبس انسامه عن أن تشيع وتستطير، ـ أن يفك أسره، ويحل وثاقه، لينطلق فيغمر الأجواء نشوة وحبوراً، وشاءت السماء التي رأت من محمد وذويه العزم على المضي قدماً بأروع ثقل لأسمى غاية رغم جموح الأهاويل، وهيجان الكروب، واستعار الآلام، وكأنها أرادت ذلك لهم لتفتح عيونهم به على مشقة المسيرة التي هم على البداية منها، ومدى ما ينبغي أن يعدوه لها من العزم والتصميم، شاءت أن ترفع ضنك الشعب ومرارته عن كواهل المكرمين، وتفتح لها باباً واسعاً إلى الحياة العريضة، فحركت بإرادتها دودة الأرض إلى صحيفة الظالمين في الكعبة فأكلتها، ولم تذرمنها إلاّ ـ باسمك اللهم ـ اعظاماً لمجد الله وجلاله، وأعلمت رسولها بما صنعت، فألقى هو ما سمعه منها على مسمع عمه وركنه الوثيق، فهاجت في نفس الشيخ مشاعر البهجة فلعل في ذلك سبيلاً لأمر الله إلى قلوب العتاة، وعساها أن تكبح جماح شراستها، وتلين وتصغي عن كثب بتفكر لنداء الحق، ولعل به قطعاً لرأس الأفعى لهذه المقاطعة البغيضة، وفتكاً بمحنة الشعب القاسية. والتفت أبو طالب إلى رسوله، وسأله بلهجة سلفت من جده ابراهيم مع ربه:

(أربّك أخبرك بهذا؟)

(نعم).

(والثواقب ما كذبتني قط).

وانطلق إلى الملأ الغوي مفعماً باليقين بصدق مخبره الذي ما عرفه قط يرسل في غير سدد، ووقف بازاء الفلول المغيظة العابسة، وقد حسبته إذ جاءها بلفيف من بني هاشم إنما جاءها مستكيناً نادماً على ما فرط منه في جنب قريش، وما لقيت منه من العنت والمساورة والذب عن منغص عيشها، وأنه إذ كادت طعنة الحصار النجلاء تخمد أنفاسه وتؤدي به أدرك ان لا طائل من انضوائه تحت لواء ابن أخيه، ولا خير في نصرته وتفدّيه. ولم تكد تستقر به عندهم قدم حتى ناداهم قائلاً:

(يا معشر قريش، جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر في صحيفتكم، فأتوا بها لعل أن يكون بيننا وبينكم صلح).

وهرعوا إلى صحيفتهم، وتداكوا عندها، فأخرجوها من مكانها في حرزها، وطفقوا راجعين، فلما استقروا بها عند الملأ من بني هاشم، قال رجل منهم وفي كلامه رنة الشامت، ونبرة الظافر، وقد حسب أن الهزيمة قد حاقت محمد، وأجهزت عليه:

(قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم).

وتكلم أبو طالب ليحيل بناء ظنونهم الخائبة أنقاضاً دفنت تحتها مسرتهم:

(أتيتكم في أمر هو نَصَفٌ بيننا وبينكم، إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني، إن الله قد بعث على صحيفتكم دابة فلم تترك منها إلاّ اسم الله فقط، فإن كان كما يقول فأفيقوا عما أنتم عليه، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم، قتلتم أو استحييتم).

فارتفع لهم صوت واحد:

(رضينا)

ومدوا أيديهم المرتجفة الراعدة بما يجيش في القلوب من ضرام الخوف من أن يكون الأمر كما يقول ابن عبد المطلب عن نبيه ـ إلى مكمنها، حتى إذا استخرجوها ونظروا فيها، غامت وجوههم، وغارت عيونهم، وتغيرت ألوانهم، وغاض معين الحول في أعضائهم، حتى كادوا من فرط ما ألمّ بهم أن يندكوا ويذوبوا، فما كادوا يبصرونها وقد تمزقت أوصالها، وأُكل منها كل حرف سطروه بالأمس فيها غير ما أُخبروا ببقائه، حتى أسقط في أيديهم، وغشيتهم الحيرة، وبهتوا، وأعيتهم الحيلة، وسدت في وجوههم أبواب الجواب إلاّ باباً واحداً تعودوا أن يهربوا منه حينما يكشف فجر الحقيقة ظلام زيفهم وباطلهم وتعاميهم، فتصايحوا:

(هذا سحر ابن أخيك).

وانقبض الشيخ لما ردوا به عليه، وقالها معاتباً:

(علامَ نُحصر ونحبس، وقد بان الأمر، وتبين أنكم أولى بالظلم؟!)

وولوا وهم يجمحون بما في قلوبهم من سعار الخبث والعدوان وتتلظى في نفوسهم نار الخيبة والغيظ في آن معاً.

ولكم أمض الشيخ المشفق الناصح الذي أحبّ قومه، وتفانى لهم بالأمس خلفاً لأبيه في سيادتهم والسير بهم بالسيرة الصالحة نحو خيرهم ودعتهم، أن يرى مشايخ قريش لا يحفلون بشأن محمد، ولا يميلون إليه وهو الحق من ربّهم، وقد بهرتهم الآيات على صدقه، وأفحمتهم الحجج على صوابه، وتبين لهم أن محمداً هو بعيث السماء إليهم، ورسولهم، ودليلهم إلى الله ورضوانه، وليس هو بعيث أهوائه، وشهواته ورغبته بالملك والسلطان، ولا حبه قلب الأوضاع وحسب، ولا ضرورة التاريخ. ولم ير أبو طالب وقد تلقاه قومه بالعصيان والخذلان ـ إلاّ أن يلوذ ملتاعاً شجياً بكنف البيت يسأل ربه العون على القطيعة وشدتها، والنصرة على الظلمة الحاسدين، وراح يناجي ربّه بقلب يمور ألماً، ونفس تتفجر اسى ولوعة:

(اللهم انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا).

ولم يعدم حادث الصحيفة نفوساً طيبة يحرك فيها ما رأته من غلبة الحق وانتكاس الباطل في الصحيفة، وذلك البؤس الخانق الذي جثم على صدور أهل الشِعْب، والذي بدا مبيناً على وجه الشيخ ابن عبد المطلب فعاد منه ذاوياً ـ الشعور بالرفق والرحمة بذلك المحق المظلوم.

وكان من بين الملأ هشام بن عمرو ذلك الرجل الذي تنزه عن صلف الغاوين ونزقهم، وكان دوماً مع تعقله مفارقاً جمعاً لم يزل يتخبط في غيه، وغربيب تعاميه، وفورة حسده وغروره.

لقد كان هذا الرجل الذي تعبق أردانه بطيب قلبه وصفاء نفسه ممن هزتهم حادثة الصحيفة المهزومة، وأججت فيهم أحاسيس الانتصار للفئة المحقة المظلومة، فسعى إلى زهير بن أبي أمية، ومضى يهمس في فؤاده عن سمعه بكلمات تفيض بالعطف والشفقة على أولئك المضطهدين الذين نابذهم قومهم، وقاطعوهم، وابوا إلاّ الكيد لهم، والوقيعة بهم، بعزلهم عن الحياة وسعتها ورخائها، ونبذهم في كهوف ضيقها وبلائها، ورام منه أن يكون عضداً له وعوناً في السعي لرد الكيد الأثيم، ودفع عادية الجور، ورفع أثقال الحرمان عن صدور الطيبين، لقد قال له:

(يا زهيرا قد رضيت أن نأكل الطعام، ونلبس الثياب، وننكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم؟).

ويرد زهير وقد هزته الرأفة والرحمة، وضاق عليه خلو الساحة التي يريد أن يصاول فيها ظلم العادين إلاّ منه، وقال لهشام:

(فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لنهضت في نقضها حتى انقضها).

ووعده هشام أن يجد لهما ثالثاً يناصرهما، وراح يستميل إلى جانبه من يعرف فيه ميله إلى الحق، وحبه لانصاف الموتورين، حتى إذا كان

عددهم به خمسة، اجتمعوا لشأنهم في أعلى مكة عند الليل، والتزم لهم هشام أن يكون هو أول من يصرخ في حشود قريش منددا بأمر الصحيفة، داعياً إلى نقضها، حتى إذا سكت هو قام الآخر ناشراً لواء التأييد، ويتلوه الباقون يفعلون فعله ويقولون قوله.

وما إن أطل الصباح الباسم، وبسط ظله السني على من تحت سلطانه، واكتظ النادي بالملأ من قريش، وعقدت في فناء الكعبة حلقات الآثمين، يبدون ويعيدون في شأن الرسول ورسالته ـ قام هشام بينهم فاشرأبت إليه الأعناق، وتسمّرت به العيون، وحسبوا أن عنده شأناً ذا بال قد خطر له، ورفع صوته ذامّاً قريشاً على جورها وعَسْفها، متظلماً للذين قاطعتهم، ودوى صوته، ورددته جهات المسجد:

(يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة).

فدوى صوت الشرك:

(كذبت والله لا تشق).

ولكن صوت زمعة كان له بالمرصاد:

(أنت والله أكذب، ما رضينا بها حيث كتبت).

وكان إلى جانبه صوت البختري:

(صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به).

ورفع المطعم بن عدي صوته بالتأييد:

(صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها).

وارتج الملأ، والجمتهم الدهشة، فلم يجدوا ما يقولونه للنفر الذين فسقوا عن ارادتهم، وعابوهم على صنعهم بالمقاطعة الغاشمة، لكن قطب الخبث أبا جهل صاح بالجمع الذي أحنت رأسه صرخة التظلم، واضرمت احشاؤه بنار الشعور بجسيم الذنب في حق بني هاشم وعبد المطلب، الالى كانوا معهم بالأمس فلم يجدوا أبرّ منهم، ولا أنبل، ولا أكرم، وهم من جبلوا على الخلال الحميدة، والخلق الكريم. ورددت أحناء البيت هدير أبي جهل يحذر قريشاً من أن ترق لنداء هشام ومن سانده منها، منبّهاً إياها إلى أن أمرهم هذا لم يكن أمراً مرتجلاً، إنما هو أمر مبيّت تعاقد عليه أهله في غير هذا الموضع، وكانت صيحته:

(هذا أمر قضي بليل، تُشوور فيه في غير هذا المكان).

وليس عجباً أن نقول أن النبي المصطفى هو من خطط بتدبيره الفذ ومشورة عمه النابه هذه المكيدة للصحيفة الخبيثة التي بان ظلمها وزيغها لمن كتبوها، حيث سعى أبو طالب إلى الرجل الذي عاضدهم في أقسى أيام المحنة وأشدّ ساعاتها وهو هشام، ورغب إليه أن يسعى في نقضها ليتم للرسول وبني هاشم الخلاص من عناء الحصار، وقد تمّ له ما أراده، وهُد ركن المقاطعة المقيتة، وخرج النبي وأهله من غمار تلك الكربات.

مصرع الطود

ما تنفست الحياة للصفوة عن وجه الطلاقة إلاّ لماما، ولا لان لهم جانبها لتسكت براكينها على الثورة إلاّ برهة يسيرة، فإن الردى ليسعى حثيثاً إلى كهف العقيدة وحضنها، وسرعان ما تغشاه، وأعلقت به آفاته، ولعل الشعب وأيامه البائسة كانا دليل الموت إليه، لا بل إن شكيمته الضارية، وعزمه الصلد على خوض أهاويل النصرة لرسول الله، وصونه من الأذى أن يمسه ببأسه وينال منه بعض ما يشتهي، هما من مهّد السبيل للموت إلى قلعة الإسلام الحصينة، وهدّ جوانبها فاستبيحت من قبل جيشه، وغدت له مباءة ومرتعا، فهو ضحية شكيمته في حياطة الإيمان، وقتيل عزمه المتين في الذب عن حمى القرآن.

وإذ أحست قريش بالموت قد أخذ بمجامع أبي طالب، ووضعه بين فكيه، وهو يهم أن يطبقهما عليه سعت إليه وهو ينازع المنية، وودت أن لو وضع لها حداً فاصلاً بينها وبين ابن أخيه قبل أن ينتهي به شوط الحياة حيث لا رجعة له بعدها أبدا. فلعل سطوة الموت قد هدت أركان صلابته التي ألفتها منه في جنب ابن أخيه ومحاماته، وصرف الأذى عن وجهه، وردّ كيد العادين عن ساحته. ودخلت عليه قريش بكبارها الذين صدم فيهم دين محمد تجبرهم وكبرياءهم ومصالحهم. وكان في الطليعة من ملأ قريش عتبة وشيبة وأبو جهل وأبو سفيان، حتى إذا اطمأن مجلسهم عنده، تكلم متكلمهم فقال:

(يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما نرى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، وخذ له منا، وخذ لنا منه، **ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا ودينا، وندعه ودينه).**

ويا لها من صفقة رابحة لو أن قريشاً أصابت منها حيث تريد.

لقد جاءت تنازع الرسول على شمول دينه بعد ما كانت تنازعه على بيضته، تبتغي اليوم أن تشل امتداده بعد ما كانت تريد أن تهد وجوده، تقبره في مهده، وها هي تتمنى أن تجعل نفوذ عمه عليه وهو في آخر ساعاته سلطاناً يرغمه على الرضوخ لطلبها، والقبول بما تمليه عليه، وهي تخشى أن يسبق الموت رغبتها إلى أبي طالب، ويبقى محمد بعده رهينة اصراره، وقرين تشدده، ويظل يصرخ في الآفاق بدعوته، حتى تردد نداءه كل الجهات، وتنصاع له قبائل العرب، فيفلت الزمام من يدها، ويضيع مقامها، وتذوي هيبتها ومصالحها، ويعلو محمد، وتسمو كلمته، فإذا بقدميه يطآن كرامة اللات وعزّى وهبل.

لكم كدرت هذه الهواجس صفوها، وارّقتها، وكحلت عينها بالسهاد. إنها تود أن ترى النبي اليوم قد خضع لمشيئتها في بقاء الصنمية، واعترف بها طريقاً يسلكه من يشاء، ويحيد عنه من يشاء، ورضي الآلهة الزائفة تطمس على عيون الناس، وتختم على قلوبهم، وتسوقهم سوق البهائم في طريق شديد الظلمة، فيفنى من يفنى تحت وطأة المسير

اللاهبة في أكنافها، ويظل الآخر تحدو به ضلالتها حتى توردە حتفه شقياً تافهاً، لم يكسب من دنياه إلاّ النكد والحرمان، ولم يفز مستعبَداً للهوى إلاّ بالمذلة والهوان.

ودوت الكلمات في أذني أبي طالب كعصف الرعد، ومسه لفح جديد من الآلام، وراح يتلفت مضطرباً كأنه في آخر النزع، وبين جوانحه ولى خافقه الواجف يهتز ويرتجف كأنما اصمته طعنة نجلاء، وتسعّرت في باطنه مشاعر الاسى والحيرة، وارتج عليه أمره فلا يدري مايبدي، ولولا أن اسعفته بقية فطنته بأن دعا محمد ليردّ عليهم لقضى وهو لم يحر جواباً. وجاء محمد فرأى شيوخ الضلال وقد أحاطوا بعمّه، عيونهم تقطر بالسرور، وقلوبهم تمور بالشماتة والتشفي، ووجوههم تطفح بالبِشْر، وهو بينهم أسير الكربات، قد ولت الاتراح تعصره في قبضتها. وألقى العم على مسمع النبي كلامهم، فالتفت إليهم وهو لا يزال يأمل أنْ يهد رواسي الشرك الراسخة في أفكارهم وضمائرهم، وأن يهدم حصون الضغن والغضب التي شادها الحسد والغيرة في نفوسهم. وخاطبهم ببالغ رأفته وسابغ عطفه:

(نعم كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتذل لكم بها العجم).

وكأنما خطر في ذهن طاغية قريش أبي جهل أن محمداً رضخ لمشيئتهم، وقبل ما أرادوه، ورضي أن يخنع ويستكين، وشاء أن يقر

بوجودهم مشركين يعبدون الأصنام من دون الله، ويعيشون في دهمائهم الخانقة بعيداً عن رحاب الله المشرقة، وظنوا أنه سئم اللوعة، وملّ الأذى، وانهكته ضروب البطش، فأراد لنفسه أن تقر بعد اضطراب، ولقلبه أن يهدأ بعد انصباب، ولتكن الصنمية نداً لدين الله، وديناً يجاور دينه، فمن شاء أتى ومن شاء أبى.

وحسب أبو جهل أن الكلمة التي يريدها محمد هي أن يسمعوه كلمة الأمان، ويعدوه بقبض يد السوء بعد بسطها، ورفع عبء الحصار عنه وعن صحبه، فقال عليه وعلى شفتيه بسمة ذابلة:

(نعم وأبيك وعشر كلمات).

ولم يشأ محمد لخواطر الأثيم أن تراوده بالمسرة، فصعقة بما لم يحتسبه، وأراه ما جاء ليفر منه:

(تقولون لا إله إلاّ الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه).

وينطلق من فم المحتضر الجليل صوت شاحب كليل:

(يابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا).

وكأنما دهاهم عاصف رهيب من الخطب أخرجهم عن دنياهم، فانتفضوا كالبركان، وصفقوا ثم صاحوا:

(أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة الهاً واحداً؟! إن أمرك لعجب).

وباؤوا بالخسران المبين، وآبوا غير مفلحين يتصايحون:

(والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون).

وقد عقدوا العزم من جديد على الفتك والإيذاء والقتل، فذاك آخر الدواء، وغاية ما يجود به وعاء الدهاء.

وأوغل الموت في كيان أبي طالب، وكاد أن يستسلم لسلطانه فيموت وغليل الشفقة على الرسول لمّا ينقع، ونار التخوف على حاله من بعده على أشدها، وقد مرّ في قلبه بل أيقن أن قريشاً عقدت عزمها على أن تجمع القبائل كلها وتنقضّ على محمد وذويه وتابعيه بعد أن يذوي عود ناصره وكافله، ويندك ذلك السور الذي كان يصد عنه المحن ويكف عن وجهه البأساء، فإذا ما مات أبوطالب فإن ساحة الدفاع والمقاومة خالية من فارسها، وليس بين محمد وقريش حصن مانع ولا همام رادع، وثمة يسهل الوصول إليه، وليس شيء أهون عليها من أن تناله بروعه بسوء ما أكنّت له. وكاد الشيخ أن ينسى صولة الموت لصولة الهواجس هذه، فأمر باحضار وجوه قريش عنده، فجاؤوا مهطعين ظانين أن قد جدّ في الأمر شيء طارف، وأن عسى أن يكون محمد قد مال إلى مشورتهم، وانصاع لإرادتهم. والتفوا حول أخيذ المنون متربصين ماينذّ عن شفتيه، متوجسين أن يكون دعاهم لغير ما تمنوه. وراح هو يدير طرفاً كليلاً عليهم، ويتفحص في وجوههم علّه يرى ظلمات التجهم والغلظة قد انقشعت عن ساحتها، ولصار ضياء البشاشة والرقة عن ذلك بدلاً. وفتح فمه ليتكلّم فخمدت أنفاسهم، وارهفت أسماعهم، وعلا وجيب قلوبهم، وبات خفقها كدق الطبول. وأسمعهم إياها كلمة فيها رقة

استعطافه إياهم على رائد الخير، ولهفة رجائه منهم إلاّ يغلظوا عليه كغلظة الصخر، ولا يجبهوه بقسوة العناد، بل أن يكونوا ممن يؤمن به، ويذود عنه، ويحميه، ويصد الكرب عن وجهه، وفيها مع ذلك تبيان حاله مع دين الله، وأنه ذلك الحكيم المدرك الذي كتم إيمانه ليحد بالأبطان غلواء غضبهم، ويتخذ من الكتمان ذريعة إلى اخماد بأسهم، والوصول إلى قلوبهم، عسى أن يجد له فيها موضع ركون، فيسمعوا منه النصح، ويستجيبوا، ويرعووا.

وقد كاد أن يظهر ذلك الإيمان نفسه في مواقف كادت أن تكون فاصلة، وها هو اليوم يسفر عن وجهه بعد ما لم يعد الاستتار مجدياً نفعاً حيث أشرف صاحبه الحكيم على الاياب إلى بارئه، وكأنما راح يرفع حجب الغيب، لا بل انطلق من عين الحقيقة التي تشع بها روح الإسلام، ما دام هو الدين الذي به يزكو الشعور، ويطهر الضمير، ويصحو القلب، وينمو الجسد، بما يكفل للإنسان ما كرّ الجديدان من حياة زاكية، صافية، خالية من الكدر والبؤس والضنى، ترش فيها السكينة آفاقه بالأمل الباسم، وتنزع اليأس والقنوط من أحنائه، وتملؤه بالبهجة والارتياح، وتميت داء القلق والعصاب في نفسه، وتبعده عن لذع الهموم، لترد به على حياض الخير المترعة، وتسد أبواب الشر في وجهه. مضى أبو طالب يقص عليهم شأن الناس مع الإسلام، فهم سيهتدون بنوره، ويستضيئون بهداه، وهم اليوم وإن كانوا أشد الناس عليه، وأكثرهم نقمة

وسخطاً، واعتاهم نفرة واعراضاً، فستدمغهم قبضة الحقيقة، تصعق سلطان التعامي في نفوسهم، وسيرغمون بعد عجز واعياء على النظر في وجه النور بأرواح لهوف إلى رحابه، ويحثّون الخطى شطر مطلعه، وإن الله سيظهر دينه على الدين كله، وسيتمّ نوره رغم كراهيتهم وعنادهم، ويتمنى اإن لو كان عنده بقية من الحياة، ومُدّ في عمره ليظل لكربه كاشفا، وللبأس عنه دافعاً، وللطريق ممهداً، حتى يبلغ غايته، ويعم الأرض ضياء رسالة الله، وتغمرها أنداؤها. لقد قال لهم:

إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، واصفت له فؤادها، وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة

(إني أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أرباباً، و إذا أعظمهم عليه أحوجهم والله لا يسلك أحد سبيله إلاّ رشد، ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ومن أجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي).

ولو لم يكن لهذا الذي ظلمه الحقد، وكان معه كما يكون السحاب من الشمس يسعى جاهداً في أخفائها، والنأي بنورها عن الأبصار، وتأبى هي إلاّ أن تبين وتقرّ في العيون ـ لو لم يكن له إلاّ هذا الكلام شاهداً على جليل إيمانه، وعظيم شأنه في دين ربّه، وسمو قدره في الاعتقاد والذياد لكفى، فإنه ليأخذ بمجامع القلوب، ويرغمها على أن ترضخ لحقيقة الإيمان المكين عند أبي طالب.

وترامى القوم لما سمعوه منه بالأبصار، وقطبت وجوههم، وعلتها غَبَرة دكناء، وكادوا أن يطلقوها ضحكة استهزاء جاهرة، لولا أن صدّهم عن ذلك بقية اجلال جبلوا عليه لهذا الرجل العظيم. ثم قاموا ليدعوه مع يأسه من أن يراهم مهتدين في حياته، فتركهم لما أبصره في قلبه من حالهم في الغد القريب، حين يحيق. بهم مكرهم، وتدور عليهم دوائر كيدهم، ويقعون في الهوة التي احتفروها لناصحهم، وسيمسون أذلة خاسئين، تجلّلهم الضعة عارها، وتجلببهم الخساسة شنارها، إذ تأكل أسياف الإسلام من لحومهم، وتفري من جلودهم، وتدفن أشدهم عتيّا عليه في سواهر طغيانهم، ويذوقون وبال أمرهم، ثم يسلمون كارهين غير محمودين. وعرّج أبو طالب على بنيه وأهل محمد وذويه، ومضى يؤجج فيهم نار الثبات على الحق، ويشحذ عزيمة الذب عنه، ومصاولة الأشرار الذين يبغونه المساءة، ومنابذة القوم الذين أبوا الا التنكر له وخذلانه. لقد جمعهم أبو طالب عنده وقال لهم:

(يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا و ترشدوا).

وصمت ثم راح يتأمل في الوجوه الناضرة من حوله، حتى إذا وقع بصره على ابنه علي وقد أخذته الرهبة، وطواه الحزن، وغمرت ساحته سحائب الهموم – التمع في وجهه بنور البصيرة تاريخ الفداء، فقرأ فيه ما ستتلوه المشاهد على مسمع الأيام من ذبّ عن الإيمان تعجب له الملائك في سماواتها، وجهادٍ في سبيل الله يحار فيه الخلق أجمعون، ودفاعٍ عن دينه تذهل له الصلاب الشامخة، فمثله وهو ابن أبي طالب يجري على نهج أبيه في مفاداة الهدى، والتضحية له، ومثله وهو ابن من وضع راحته قرباناً لدين الله ـ لايتوانى عن نصرة الحق مهما كانت التبعات والتضحيات.

وابتهجت نفس أبي طالب لهذه الرؤى الحالمة، وطغى فيه تيار السرور، حتى لقد كاد يحسب أنه في تمام عافيته، لولا أن كذبه ما يراه من وطأة الموت التي راحت تهصر أغصانه، وتقضم فيه بالناب الضروس.

وقد شاء الله أن يختم كهف الإيمان حياته في آخر لحظاتها التي بذلها زهيدة له ـ بنصرة الدين، والوصية البالغة بالرسول والرسالة، فقد أطلقها عبّاقة من شعره الذي خاض به الحرب على العتاة مع سنانه جنباً إلى جنب، وكان له به صولات لا تنكر، وجولات لا تُنسى.

وابتدأ المودع الأمين على مسار الرحيل وصاته مخاطباً أصغر الحاضرين سناً، وارفعهم شأناً، ثم يعرّج على عِلْيتهم وأكابرهم وسائرهم:

أوصي بنصر النبي الخير مشهده عليًاً ابني وعمّ الخير عباسا

وحمزة الأسد المخشي جانبه وجعفراً أن تذودوا دونه الناسا

وهاشماً كلها أوصي بنصرته أن يأخذوا دون حرب القوم امراسا

كونوا فدى لكم نفسي وما ولدت من دون أحمد عند الروع أتراسا

بكل أبيض مصقول عوارضه تخاله في سواد الليل مقباسا

وفاضت روح ذلك الجبل الاشم، وقضى نحبه أبيض الصفحة، مشرق الجبين، نقي الذيل، عاش للإيمان، وذوى من فرط الأثقال التي تحملها له، فكان حقاً له على الله أن يسكنه الغرفة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وامتلأت أجواء الرسالة والرساليين بالحزن والأسى، وغمر قلب النبي الذي فقد كافله وناصره غم ولايطاق، واعتصره الألم الحازب، وبكى عمه من كل قلبه المفجوع وروحه الملتاعة، فالخطب فادح رهيب، والمصاب به جلل عصيب، فلقد بات الإسلام وهو بعد جنين يحبو وليس بينه وبين النوب والزعازع سد قاهر، ولا حجاب ساتر. وانثال الحاضرون في مشهد العروج الملائكي على سيدهم يمجدونه،

ويطرونه، ويثنون عليه، وانطلق علي من بينهم يرثيه بشعر ضمّنه اساه الشديد، وانصداعه العنيد، وحقيقة الفقيد المجيد:

أبا طالب عصمة المستجير وغيث المحول ونور الظُلَم.

لقد هدّ فقدك أهل الحفاظ فصلى عليك ولي النعم

ولقّاك ربّك رضوانه فقد كنت للمصطفى خير عم

ولم يطق أن يرى نفسه عند أبيه المسجى، ولم يحتمل مشهد المجد الشامخ أمامه جثة هامدة قد فارقتها تلك الروح الرضية، وهجرتها تلك المشاعر البهية، فاندفع هارباً من مكان الفاجعة صوب الرسول الذي كان مع دينه في شأن من شؤونه، فألقى عليه النبأ الذي لم يجد أثقل منه، ولا أشد منه وقعاً على قلبه، فأبو طالب كهفه، وسنانه، وحصنه، وسلطانه، وهو تلك النفس التي لم تفتأ ترفرف حوله بحبها وحرصها تردّ عنه البأس، وتظاهر روح العزم والاصرار ـ قد قضى وفارق الحياة تاركاً محمداً وحده في الخضم المزبد والموج الثائر. وانطلق إليه وقد عصفت به الكارثة، واعتصره الخطب، وهدته النكبة، ووقف عليه منكسر القلب، شجي الخاطر تمور فيه فداحة الكرب، وتعصف فيه شراسة المصاب. واسعفته عيناه بدمع ضارم ملتهب فيه بعض من لظى أحشائه، واسعفه بيانه بكلمات فيهن شيء من اساه، وأقبل بوجهه عليه منادياً إياه:

(وا أبتاه، وا أبا طالباه، وا حزناه عليك يا عماه، كيف أسلو عنك يا من ربيتني صغيرا، وأجبتني كبيرا، وكنت عندك بمنزلة العين من الحدقة، والروح من الجسد).

وأشرف على غسله وتكفينه، ثم سار خلف جنازته مهزوزاً مضطرباً، لا تكاد تستوي به قدماه على الأرض، حتى بلغ القبر، فدخله قبله، وسواه بيده، واضطجع فيه، ووضع خده على ترابه، ليبارك الله له في مرقده، ويجعل من ضريحه سكناً هانئاً مليئاً بالمسرات. وتناول جثمانه الكريم بيديه الطاهرتين، ووضعه في رمسه، ثم أهال التراب عليه.

ورجع النبي صفر اليدين من ناصره وحاميه، ليواجه البطش بدونه مع ثلة طيبة تسخى بكل شيء من أجله، ولكن ما لها من الحول كحول فقيده، وما لها من الطَول كطوله.

وشاءت السماء أن تري رسولها مكانة من أرمضة موته، ومّض به فقده، فبعثت إليه وحيها بخطاب ربه:

(يا محمد ربّك يقرئك السلام، ويقول لك ان أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان، وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان، وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله بالجنّة).

مع ثقيف

ودمدمت رياح العذاب الهوج بساحة الرسول و أتباعه، وثارت عليهم حمم التنكيل بأفظع الصور من ثورتها، وعصفت المكائد بالروض الوليد الذي غاب عنه راعيه، ومانع الصروف عنه، وأزبدت المحن طوفاناً جائحاً، ورأى النبي وقد فتح الطريق لقريش إليه بعد ما كان يقطعه عليها حصنه المنيع ـ منكر الأمور، وأفظع الأحوال، وعندها أطرق ملياً، وسرح بخاطره في أيامه مع عمه يوم كان مصون الجانب، ممنوعاً عنه به كل سوء، مدفوعاً كل اذى، مفروشاً طريقه بقلب أبي طالب وروحه وحياطته ـ فأحس بلوعة فقده وغيابه، ومرارة الفراغ الذي تركه فراقه. ورفع رأسه، وولى وجهه شطر قبره، وانبثقت من أعماقه متوقدة كتوقد آلامه، متأججة تأججها، كأنها شعلة من نار، أو قطعة من كبد بركان:

(ما أسرع ما وجدت فقدك!).

ويروح بعد ذلك يعلنها مراراً، حقيقة أثبتها واقع المسيرة، وشهد لها المنصفون:

(ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب).

(ما زالت قريش كاعة عني حتى مات أبو طالب).

ولقد بات جلياً أن مكة المتلظية لم تعد للإسلام دار عز وكرامة، ولا موطن قرار وسلامة، وأن بقاء محمد وتابعيه فيها مظنة شر وخيم، فقد ترغم السياط اللاهبة ثلة منهم ممن كان الإيمان ضعيفاً في نفوسهم على

النكوص والارتداد، ويؤدي البطش الداعر بثلة أخرى، ويظل ركب الإسلام هكذا مع هذا البلاء اللافح، حتى يخوى وينهار. وجاء أمر الله إلى رسوله أن: (أخرج منها فليس لك بها ناصر)، فإلى أين يذهب الرسول؟! وإلى من يأوي بثقله العظيم؟، ومن سيعطيه حقه من الاعزاز والحماية؟، وأي دار ستفتح له ذراعيها بلطف، وتضمه إلى صدرها بحنان؟

راح يجوب الديار بخاطره، ويقلب فيها طرفه، علّه يعثر من بينها على ما تكون لدينه مأوى ومستشارا..

وما إن لمح الطائف حتى قرّ بصره عندها، وحسب أنها أهل لذلك، ونهض لينقل قدميه إليها، فلعله إذا ما حدّث اشرافها بأمره سيرى منهم لين الجانب، وبسط الوجه، وعلائم الاكبار، والوعد بالنصرة والتأييد، والأخذ بيده حتى غايته.

ومضى يقطع الطريق إليها، حتى إذا بلغها وكلم ثلاثة من عِلْيتها في شأنه كان ما لم يكن في حسبانه، فيا ليته ما جاءهم، ولا نقل الخطى إليهم، لكأنما سعرت كلماته في نفوسهم جحيم الغضب لحسد متسعر وغيرة ثائرة، فاسمعوه ما لا يقلّ شأواً في السخف عما يسمعه من اخوانهم في مكة، وأروه من الأذى ما ليس يفوقه أذى قريش الخبيثة، التفت إليه أحدهم وصاح به:

(إنني أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك).

واردف أخوه:

(أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟).

وتبعهما أخوهما على نهجهما:

(والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك).

وحين رأى منهم عنادهم وشدة رفضهم، رغب إليهم إلاّ يشيعوا خبره، ولا يذيعوا به، لئلا تعلم غوغاؤهم فتهب تسومه الخسف والهوان، ولئلا تعلم قريش الغاوية فتشتد عليه نقمتها، قال لهم:

(إذا فعلتم ما فعلتم فأكتموا عني).

ولكنهم اندفعوا بخبث السجية ولؤم الطوية، ليغروا به سفهاءهم، يؤلبوا عليه الاغرار، فتداكوا عنده، وانثالوا ساخرين مستهزئين، وانهالوا بالحجارة فكأنها مطر السماء، حتى لقد كان يقول عن حاله هذه:

(ما كنت ارفع قدماً ولا أضعها إلاّ على حجر).

ولولا أن يسعفه بستان ابني أبي ربيعة بلجوئه إليه لا صابت منه الحجارة مقتلاً أو أوشكت، فما إن دخلها حتى تركوه يعالج آلامه وكلومه، فإذا ما اطمأنّ به مقامه في البستان، وهدأت نفسه، وسكن اضطراب أعضائه المدماة، تنفس الصعداء، وصعّد نظره في السماء، وراح ينادي ربه:

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟، إلى بعيد يتجهمني؟، أم إلى عدو ملكته أمري؟، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاّ بك).

وتحرك في عروق الشقيقين دم الرأفة، وآلمهما حاله، ورقّا له، فأرسلا عبدهما عداساً بطبق عنب، فجاء به ووضعه بين يديه، وحينما مد يده إليه قال:

(بسم الله) .

فأذهل عداس، واضطرب، وجرى في أنحائه تيار العجب، فمن هو هذا الرجل؟، وما شأنه مع أولئك الذين جاؤوا به يشيعونه بالسباب والحجارة؟، وما هذا الذي يقوله؟، ولعل ذاك الذي لقيه هو من هذا أو مثله؟!

وظل عداس يدور في فلك تساؤلاته، وعزم أن يقطع الطريق على حيرته، فقال لمن أدهشه أمره؟:

(والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد).

ورفع النبي بصره إليه وقد غشت وجهه بسمة حانية شفيفة، وقال له:

(ومن أهل أي البلاد أنت؟، وما دينك؟).

(نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى).

(من قرية الرجل الصالح يونس بن متى).

فهب عداس كأنما صعق، وسأله والدهشة طافحة على وجهه:

(وما يدريك ما يونس بن متى؟!).

(ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي).

ولم يتمالك الرجل نفسه، فأكب على قدمي الرسول ويديه يقبلها، وقد داخله أنه على حق، وأن ما يدعيه هو عين الصواب، وأحب أن يستزيده مما يصل به حد القناعة، ويورده عين اليقين:

(والله لقد خرجت منها ـ (نينوى) وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفت أنت متى وأنت أمي وفي أمة أميّة).

وأعاد عليه قوله:

(ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي).

شيء واحد ولا شيء غيره بات يملأ فكر النبي وقلبه وخاطره، يمشي وهو رفيقه، ويقر وهو قرين قراره، ويتحدث وهو كل كلامه، يؤذيه ماآذاه، ويسره ما أسره، فلا ترى له ميلاً إلى سواه، ولا تجد لسواه موطئ قدم في دنياه، وكان ذلك الشيء هو العقيدة، فهي كل وجوده، يسعى لها، ويهدأ من أجلها، ويتكلم إذا كان الكلام ينفعها، ويصمت إذا

كان في الصمت خيرها، ويأبى أن يفوته حين من زمانه وهو بمنأى عنها.

لقد جرت في عروقه كدمه، وسرت في أنحائه كروحه، وإنك لتراه مع عبد ابني أبي ربيعة ـ وقد لقي من قبل أن يضمه وإياه الحائط ما يضيع به لب الحليم، ويطيش بعقل الفذ، ويذهل الإنسان عن كل شيء إلاّ روحه، فقد عصفت بوجهه ثقيف، وصادمته بتيار الأذى، وهتنت منها عليه مزن الآلام لم ينفك عنه رفيقه، ولم يتخل عن طبعه، وكانت العقيدة هي كل شيء منه مع عداس.

وانطلق محمد وقد أوشك الليل أن يهيمن على الأرض، ويلفعها جلباب الظلمة، وها هي الشمس ولت تسعى إلى خبائها في كنف الغروب، وأذيالها الصفر تجري خلفها، وتتبعها أتباع الصبي أثر امه، وعجلان ما غابت عن عين رائيها، واغدف الدجى، ولولا أنه كان يحمل على كفيه مصابيحه من النجوم لغلظت وطأة طخيائه، واشتدّ أمر دهمائه، واعضل من بات يسري في اطوائه المدلهمة.

وخيم السكون على كل ما يحيط بالرسول، واستعلى سلطان الصمت من حوله، فلا رعاة يهزجون، ولا حداة يحدون، ولا طيور تصدح، فقد آب الرعاة، وقر الحداة، ولجأت الطيور إلى أعشاشها، ولم يعد يسامر الأرض غير ابتسام النجوم ولمعانها، وغير محمد يشدو لها قرآناً وتسبيحاً وتحميداً.

وإنه لينظر أمامه فلا يرى إلاّ خضماً من الليل متلاطماً، والتلال جثمت على صدره قد تبدت كأنها غيلان شاخصة، فلما بلغ موضع نخلة وهو واد يبعد عن مكة قيد ليلة ألقى رحاله هناك، والمشهد الذي رأه في الصباح لا ينفك ماثلاً أمام عينيه لا يبارحه، فالأخاديد التي احتفرتها في جسمه سطوة العابثين لم تعتم تفيض بالآلام، وتحرك الأوجاع. واستغرق في صلاته وتهجده، وسمت إلى آفاق الخشوع نفسه، وراح يمخر في سبحات اللهوف إلى الله عباب البهجة، ويطوف في أرجاء اللذة، ونسي ساعتها دنياه، وذابت هياكل الهموم، واندكت صروح الغموم، ومن حوله اجتمع نفر من الجن ينصتون لتسجيعه، ويصغون لهديله، ويستمعون لقرآنه، ويعجبون لجلاله وسموه كأشد عجب واكبره، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين:

(قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم).

واتجه محمد بعد ذلك صوب مدينة الاتراح، وعاد إلى دار نابية خؤون بعد ما خرج منها إلى جارتها التي أمّل فيها سجية الرحمة وشيمة الوفاء.

ولم يدخل مكة إلاّ لاجئاً بجوار، فقد حرمت عليه أرضها، ومنع منها حتى موطئ قدميه، ولو لا سلطان مطعم بن عدي وجواره لما كان له رجوع إلى مكة.

لك الله يا محمد، حملت مشعلك على راحتيك يوقد من وحيك وقلبك، تخوض موج الأهوال، وتتجرع مرارات الصروف النُكد كؤوساً حنظلية، خطاك فيها على الجمر، وأنفاسك من حر السموم، ومضجعك وخز السعدان، وشرابك الصاب، ومطعمك اللوعة، لا فترة مريحة، ولا دعة مزيحة، هم واصب، وبلاء حاصب، لك فيها مهاد من أذى، وغواشٍ من شجى، وأنت في كل ذلك صابر ظافر بصبرك واحتسابك، عزيز منيع بثقتك وأملك، راضٍ مستسلم لحكم القبول بوعيك لدورك، ويقينك من أمرك. تلك هي الطائف من ورائك لاتزال تسمر في نواديها بقصة حجارتها وجراحك، وهذه هي أمامك مكة التي أنت على أبوابها يأباك اشرافها الساخرون من أساك وحيرتك ووحدتك، وهذه هي دارك النابية التي تجسدت حسرة ملحة، وزفرة لازمة، مذ هتنت عليك فيها عوادي المحن، فتواترت الرزايا بفقد الحماة والناصرين، وها أنت بلا كهف ولا سكن، عمك المتين المكين قد رحل من حماك المروع المفجوع إلى حماه الآمن القرير، مشيعاً بهمومك ووصاته ومناه، وزوجك الوفية الرضية عرجت ولما تظفر بمبتغاها أن تراك في أمر جديد سعيد، معافى من الخطوب الجائحة والحصار العنيد، فعبرتْ الخضم المزبد على قارب

المنية إلى مرفأ الأحلام بانتظارك، في عينها عبرة لفراقك، وفي قلبها غصة لشجاك، ولم يبق لك من هذه الروح الأنوس الا عبقة غضة ناعمة اسمها فاطمة، تجهد في أداء فرض التعويض فتفلح أو تكاد، ولم يصحبك من ذلك الكهف الحصين إلاّ أمل بهي اسمه علي، قُدّ من قلبه ورجائه في ذروة الصدق والخلوص، يود لو كان له من أبيه تلك الخصائص التي تفرد بها بحكم العمر والدور ليجديك في غلواء قريش حيث أنت لهيف إلى الجدوى. وإلى جنب هذين بقيت أرملة أبي طالب بنتُ أسد أمك بعد أمك كما وصفت، تشاطرهما الغم والأسى في فورة الترقب مع هواجس المجهول، تجفو مثلهما طيب الرقاد، وتسامر دأبهما نديّ السهاد، ولو لم يجدوا مثلك في لذة الصلوات والدعوات في غمرة العرفان والسُبحات، ما وجدت أنت من العزاء والرجاء والرضا، لكانت لهم حال أخرى مع التهمام والآلام وجمر الغضا.

أتراك تعبت بعد ما أعيتك الدروب، وحارت بك المسالك، فراح عناؤك المر يتحلق حول عزيمتك المتهادية، يستهيلها بالخبال، ويوهيها بالتوهين،؟ أم أنك ما زلت منذ تلك الساعة التي أقسمت فيها لملأ قريش بين يدي عمك أن لا تترك أمرك حتى لو وضعوا لذلك الشمس والقمر عن يمينك وشمالك ـ صلداً شامخاً كأنك قمة الجبل الأشم، لا يبلغها سعي الكلال، وتنحدر عنها سيول العزائم؟

ما الذي ستفعله أيها المكدود بعد حادثة الرد المشين من غواة الطائف، ورفض مكة دخولك إلاّ لاجئاً بجوار؟

ألم يكفك التركاض في الهموم والعثرات والأوجاع، وها هو قلبك بين جوانحك أسيان مفعم بالحزن، قد أصمته السهام الرائشة التي جعلته مرماها ومهواها فصيرته أفلاذاً، وفي عقلك وضميرك قضية مقدسة كبرى اتخذتها قريش ومن لف لفها سِخرياً، فقصدت مقاتلها بفتل الشبهات وحز النصال، وقصدتك لأجلها بنبز الالقاب وسوء الفعال؟.

ألم تتحلل بمعاذير العقبات والنكبات من فريضة البلاغ ما دام الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، وقد بلغ السيل الزبى في مهمتك العسرى، حتى صرت مجمع الرزايا والكروب، ومباءة العوادي والحطوب؟

كيف تريد أن تقهر هذا الرفض المتجحفل المهتاج ازاءك كأنه المارد المهيب، وأنت وحيد أعزل خاوي الوفاض من العدة والعديد، بين المحرومين والجياع والمقهورين، كأنك تريد أن تغير أعراف الحياة ونواميسها؟

كيف استطعت أن تقنع هؤلاء الحفاة المحروبين أن يجدوا فيك الأمل الأثير الذي يتفدّونه بكل غال ونفيس وإن تخطفتهم فيه النائبات، وحلت عليهم البلايا والمصيبات؟

ماذا فعلت بحلوم هؤلاء العُناة حتى صاروا يلفون فيما بشرت به منال الفؤاد الذي يستسهلون له الموت تحت سياط الجلادين؟ ماذا فعلت

لتلك الأَمَة (سمية) التي لم تعرف وهي في أوهاق العبودية غير الذل والجهل فصيرتها حرة في ذروة الانعتاق، عزيزة في قمة الرفض والاباء، واعية، بصيرة، معبأة بالصمود الفذ حتى الموت على ما وعت وتبصرت، لتكون قدوة المضحين الأحرار على أسمى مسار؟

هل قلبك غير هذه القلوب البشرية التي تجزع في الضراء والنكباء، فتنقلب معذّرة تبحث في المسوغات عن أغوار التبرير لعجزها المرير؟

هل روحك غير هذه الأرواح الانسانية التي خلقت لواقعها وظروفه وشروطه ومعادلاته، تحكمها سطوة الأسباب، ويخضعها قهر المؤثرات، لتعتقب عليها القرون في حيرتها وحسرتها؟.

هل أنت غير النبيين الذين لما ضاقت بهم المسارب في الهداية فواجهوا معشار ما واجهته من عرامة الأعراض، ذهبوا مغاضبين على ملال، أو دعو ربهم للأخذ والنكال، وانتهت أدوارهم بعذاب بئيس ينزله الله بأقوامهم، لتبقى مثلات الغابرين دروساً للآتين، وما أنت بأهون على الله منهم، وليس دعاؤك أقل حظاً من دعائهم في لطف الاجابة، فلو سألت ربك كما سألوا لنلت ما نالوا، فدمدم الله على المساءة والشنآن، وانتهت قريش ومأساتك وسَورة الأحزان، وألفيت راحتك التي هجرتك مذ صحبتك الرسالة و أثقالها، وساورتك للشرور على سبيل الأداء أغوالها وأهوالها؟.

لماذا هذا العناد الصارم كشفرة السيف المسنون، ترفض له كل أمرٍ فيه الهوادة والسكون، حتى حين تعطيك قريش بعض ما أردت لتحفظ لنفسها بعض ما تريد، فلم تهاود لأن ذلك في شرعك إدهان ذميم، وركون عقيم، ولم يخطر في بالك ما يسميه دهاة السياسة اليوم ـ المداورة، والمناورة، والتقاء المصالح في نقاط التقاطع، أو القبول بالممكن حين يستعصي المرام بالموانع الحاجزة، وابيت إلاّ سائر المطلوب أو الهلك دونه، فأبى خصومك اللُدّ إلاّ أن يثاوروك حتى النفس الأخير، لأن فيما ترجو مدحرة الآلهة والأمجاد والمنافع؟.

ألهذا الحد كنت يا سيدي على يقين من أمرك، كأنك ترى في أفق الغيب الصادق عقباه نصراً مؤزراً يفتح الدنيا العريضة لرسالتك، من هذه النقطة البائسة التي أنت فيها، وهي أضيق من سم الخياط، ليستحيل المصدود الطريد اللاجئ المسكون بالغم والألم ـ سيد الدنيا، وفاتح العالم، ورائد الأمم على طريق الخلاص المحبور من لجة الديجور إلى مشارق النور؟